أغنية للبحر

أربعون عاما
مع
القصة القصيرة
١٩٥٤ ـ ١٩٩٤

فوزيــة مهران



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة إبداع المرأة)

أغنية للبحر
فوزية مهران

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

أغنية للبحر

على سبيل التقديم:

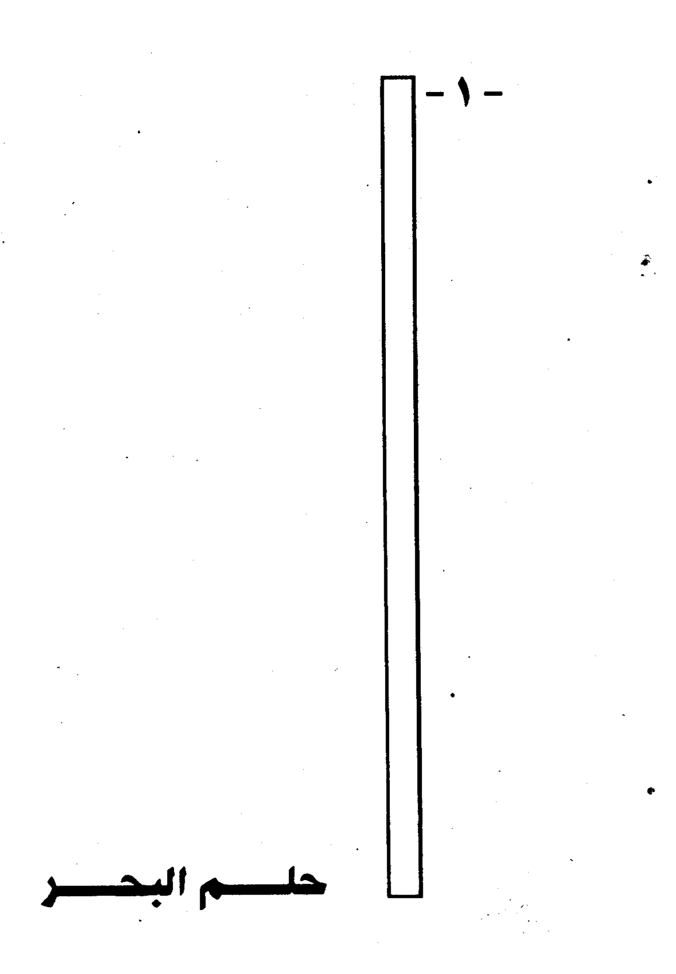
لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة تتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان

أغنيه البحر القديمة

تدور بحد يثير الدهشه
البيت والشجرة والكلمات تعيش حضورك
قطعه الأرض الندية .. تضمك
تحتضن بها قلب الوطن .. ووجوه الأحبة
قريتك .. سنديس .. بحرك الثالث
مازالت على الصورة التى تركتها بها ..
الجسر الجديد يمتد إلى الجامعة
رحلتك بدأت من هنا .. الحلم مازال قائما
مازلت أقبض على جمر الواقع ..
أسعى للعثور على أيقونه حية .
أغوص وراء لؤلؤة كامنة
أتوحد مع لحظة متقدة .. خفقه واعدة
هذا عملى .. وتلك مهمتى.

فوزيه مهران



- ١ -

حلـــم البحـــر

○
○
○

وأنا فى طريقى إلى بيتنا الخشبى القائم على حافة المدينة احتضن «فكرة دافئةً» :

(أنت اذ تبنى المجتمع .. تبنى نفسك)

الأرض تبدو منبسطة أمامى .. تمتد حتى الأفق .. تتوحد فى عناق مع السماء .. وكأنى أسير فوق الماء .. أسبح فى اليم .. وأجدف لأصل إلى مرفأى ..

داخل شباكى « لؤلؤة باهرة » .. بعد رحلة الصيد ومخاطرة الصبر يهبنى البحر رزقا شهيا . رغم أنى متعبة إلى درجة بالغة .. مضى اليوم شاقا والجهد مضنيا .. وجسدى – كأنما قد من زجاج – لايزال يحمل صدى طرقات المعاول .. وعواء الآلات..

ومع ذلك يدب فى نشاط غريب .. وتأخذنى نشوة محلقة .. الحالة التى تسبق كتابة الشعر :

ـ نحن نقرأ الشعر لنحسن فى أسلوب العمل .

ونظر إلى « ذاهلا » – كأنما قلت عجبا – ظل يتأملنى بغرابة .. وانصرف ..

منذ تلك اللحظة لذت لى لعبة أن « أروعه » أسكب لديه ـ قاموس كلماتى الغريبة .. ومفرداتى المحيرة .. (أود أن ينظر إلى – صعقا – كما فعل .. وتستبد به الدهشة ..)

والحقيقة – رغم اقتناعى به كرئيس متميّز للعمل –

وشهرته الفائقة فى عالم البناء .. يثيرنى صمته الطويل .. وعزوفه عن الحوار أو المرح ..

(أشعر به يحتجز ذاته داخله .. وينطوى على وحدته .. وأشعر به فى حاجة إلى كى أقف بجانبه .. وحمايته ..) عمله يستنزف كل جهده وطاقته .. ويعيش بعد ذلك فى عزلة يمتنع فيها عن التواصل مع أحد .. لذلك كان غريبا لديه أن تهتم مهندسة – بالشعر ..

« نظرته المدهوشة .. نبهت جنون المغامرة داخلى ».

أود الابحار إلى عالمه الداخلى .. التجديف فى بحار وحدته الوصول إلى المنطقة الخطرة لدى المياه الجوفية العميقة لأفتح كل السدود .. وأقيم جسورا ممتدة له حيث الخارج الرحيب .. ودفء المشاركة ..

جلست فى الشرفة مسترخية « عاودنى حلمى القديم » ألتمع هناك وراء الأفق – كما كان يبدو من بعيد .. وصارى زورق يقترب ..

اخترت لنفسى مجلسا فوق تلك الصخرة النائية .. موغلة فى قلب الماء .. طرف لسان حجرى يفصل بين النهر والبحر .. وأنا بعد صغيرة – ناحلة وشاحبة –

وسط هذا الاحتضان الكونى .. كنت أحدق بظهر الغيب .. أرنو وأرتقب فوق هذا الخط الوهمى يفصل بين عذوبة النيل .. وملوحة البحر المتوسط .. أريد لأحدد لى فى العالم – موقعا –

أتطلع إلى فارس بحار أمضى معه .. حنين لأجوب العالم أسمع وأرى .. شوقى إلى سفينة نوح تقلنى ..

أحشر مع زمرة الصالحين وأجد لنفسي عملا ومكانا بينهم.. توق إلى سمكة يونس تقذف بي إلى شاطيء جديد .. دافيء ورحيب .. أريد – لأشيد – عالما بأكمله ..

« مدينة مسحورة » أشارك جوقة العازفين لحن وجودها ..

« ميناء مضيء » نعيد غسل مبانيه .. وأحواضه الجافة وتماثيله ..

« جزيرة مهجورة » نعمل على اكتشافها .. وتدب الحياة بها تحت وقع أقدامنا ..

- أريد عملا عظيما –

لا حياة تعسة هانئة .. لا معيشة « داجنة » نحظى فيها بما يقدم إلينا ويعد من أجلنا (أود بناء صعبا لاقيمه)

تعمدت القول لزميلتي في المكتب هذا الصباح – أمامه ..

–البناء الخالي من الروح لا يثمر أفراحا أو يقيم أودنا ..

وفغرت الزميلة فاها – كانت تعاني صعوبة في الفهم – (لم يكن مهما على الاطلاق أن تفهم .. المهم أن يسمعني جيداً)

لذت لي المداعبة . عدت أرسل كلماتي جمرات . استخلصتها من تنور الحكمة ذاتها – ما زالت مشعة ومحرقة ..

– المشاعر الانسانية والانطلاقات الروحية ضرورية للبناء . ولكي يرتفع البناء حقا – لابد من المشاركة –

عادت الزميلة تطل في وجهي لتعرف ما أعني .. ما اذا كانت هي المقصودة بالحديث .. لم يرفع عينيه عن الأوراق أمامه - لم تبد أثر خلجة على صفحة وجهه المحايدة .. أيقنت أنه يفكر فيما أقول .. أو لعله يرى بوضوح ما أفكر فيه ..

* * *

مر أمام الشرفة من بعيد .. يلوح لي كطيف وسط سكينة الأفق .. بوسعه أن يراني على بعد .. ربما يتوق لحديث معي .. فارسي بحاري القديم - كما كان يبدو لي دائما - يجيء راكبا الموج .. ناشرا شراعه ويقترب .

لكن « مهندسي » يقف في عمق الأرض ظامئا ..

في مواجهتي .. يرفع رأسه إلى السماء .. يناجي ربه « ظمأن والماء لا يرويني »

يطأ بأقدامه الصخر .. ويعمل فيه موهبته وخبرته .. لكن « جفافا » يحيط به .. لا يحوي قلبه « حلم البحر » مثلي ..

تتركز حركة وجوده في العمل فقط .. بعد ذلك خواء وخلاء موحش .. من وإلى وحدته (هذا الخلاء المجهول يجذبني .. يشدني ..)

يوغل في السير .. يبتعد .. أنا موجودة في خلفية صورته .. وهو « حاضر » في مقدم مشهدي ..

(تأثرت لوجوده في مجال حلمي .. ودائرة حاضري)

معنى ذلك أنه غادر كوخه الخشبي المنعزل .. ضاق بعزلته ..

مل وحدته .. سعى فى الأرض ليسمع انسانا أو يقول له .. يريد ليكون - كصيغة الله فى خلقه - انسانا قابلا للمعاشرة والسكن .. لا يذر نفسه فرداً موحشا ..

طه يدير كلماتى برأسه .. يفكر بى ربما ..

وأنا أصحبه معى فى جلستى .. إلى زورق حلمى وعمرى.

لا يفارقنى حلمى منذ الصغر .. يكبر وينضج معى .. الان أحلم وعيونى مفتوحة ..

مشدودة إلى أمام .. حمدت الله أن مازج بين حلمى والعمل.

* * *

كان المنظر مهيبا ساعة الظهيرة .. انتصف النهار وكان الرجال يعملون بلا كلال .. آن لهم أن يستريحوا فترة الغذاء ..

كأنما سيمفونية تدور فى أوج شدتها .. ثم يهدأ الايقاع ويبطىء حتى يصير صدى توقف صوت الالات وزعق المعدات .. برزوا من بين البنايات بالمئات .. غصت الارض بالرجال السمر تحت وهج الشمس .. خرجوا من جوف العمارات ومن بين الفتحات .. جمعا .. أمما ..

ظل المغنى الشاب معلقا فوق سقالته يكمل عمله واغنيته .. تصايحوا به أن ينزل ويشاركهم الطعام ..

- الصوت يصفو والمعدة خالية ..

- املأ جوفك ليمكنك الغناء..

- للمغنى الفقير معدة واحدة ..

لم يكد يتم كلمته حتى زلت قدمه .. ورأيناه يهوى إلى الأرض .. توقفت الحركة والأصوات وكان أسبقنا إليه - لم تأخذه المفاجأة -

ضمه إلى صدره .. وأخذ يضمد جرحه بمنديله (بوركت اليد التى تحنو وتضمد)

وأسلمنا للدهشة لفرط حنوّه ورقته -

الجريح نفسه - كان ينظر إليه ذاهلا .. لا يكاد يصدق أن ذلك الرجل الصامت الجاد النظرات والكلمات .. المتغطرس - بعض الشيء -

هو الذى رمى بنفسه على الأرض عله يحميه أو يخفف من عثرته .وقفت أتامله :

كنت أظن قلبه قسى من العزلة .. برودة الوحدة .. لكن ذلك الحادث المفاجيء يكشف عن قلب يفيض بالحب .. عن قدرة غير محدودة للعطاء ..

أصبح أكثر مودة ورقة .. يبدو مهتما .. حنونا .. ترى ما الذى غيره ؟..

* * *

ما سر ذلك التغير الذى طرأ عليه .. كان الجميع يتعاملون معه على بعد .. ينظرون إليه باحترام ومهابة ..

لكنه الآن يتلطف معهم، ويسأل عن أحوالهم وعيالهم ويدعوهم للحديث عما لديهم، هل صار يحلم؟ يتصور عالما آخر غير دائرة العمل.

حملت حلمى معى إلى هذه الأرض الصعبة ..

وكما كنت أتطلع فى صغرى إلى البحر .. وأنتظر

سفنا وشراعا وملاحا قادما .. رأيتنى داخل خريطة مجسمة .. أعمل فيها بالقلم (وسبحان الذى علمنا بالقلم) نرسم بيوتا ومدنا .. ونخط قوائم وأعمدة .. ونتجول بين أسطح .. وحجرات وحدائق (وهى بعد فكرة دافئة).

تميل المرأة بطبيعتها إلى « البناء » .. وأعماله تمثل جاذبية شديدة لنا .. فريق العمل - الذى إليه أنتمى - يضم عشرين مهندسة .. يا زمن الوعد .. قد من الله علينا ومكّن لنا فى الأرض .. نبنى عليها بيتا .. ونقيم سكنا وأمنا مستقبلا..

ويتصاعد بنا البناء .. يعلو يوما بعد يوم ويرتفع قلت والعربة تقلنا إلى موقع العمل :

- ونحن اذ نبنى المجتمع .. نبنى أنفسنا ..

اعتبرتها « المهندسات » حكمة بليغة أو مقولة بالغة..

- حقا ونحن نفكر فى العام ونعدله .. ننمى الخاص الذى لدينا ونحسنه .

(وأنا لا أفرق أبدا بين العام والخاص .. بل لا أعرف لى تاريخا منفصلا .. كل أحداث حياتى وأحلامى متصلة بما يجرى على أرض الوطن ».

ومع اهتزاز العربة .. يدب فى النشاط وتتيقظ قوى الحلم والمغامرة .. (عاودتنى - حالة الشجن - والرغبة فى لقاء بحارى القديم .. جعل " الخيال " ممكنا) كتيبة مظفرة نحن نغزو الأرض البور والأراضى المنسية أو المغرقة نقيم معسكرنا ونحشد جيش العمال والبنائين .. وتدب حياة جديدة وراء خطواتنا ..

كنا لحظة دخول الأرض « العارية » مثل المكتشفين

العظام .. نرتاد عالما جديدا مجهولا .. وشراع كولومبس يلوح لأعلامنا ..

نريد لنضمه إلى دورة الحياة .ودائرة الزمن ..

هدير البحر يعيد صوت التاريخ .. وعبق حضارة متألقة ..

رسونا وبدأنا نشر معداتنا .. جوقة عزف نادرة .. نضبط الالات ونبقى على « الوحدة » بيننا .. ويتوحد الإيقاع بنا ..

وعندما يشتد العزف .. ويتصاعد النغم .. تنطلق صيحات الألم والفرح « تولد مدينة » .. هل حضر أحد مولد مدينة ؟

أنا عشت لحظات خلقها ..

هل يحب احدكم – مدينة يقع فى هواها ويشغف حبا بها ..

أنا أعشقها – مدينتى – ولدت على يدى .. ضممتها .. لثمت جبينها (وهى بعد دافئة .. طرية ورابية) ..

عانيت كل لحظات المخاض .. وتدفق دمى لرؤية الوليد المرتقب .. تمت أشهر الحمل والضنى وجاءت اللحظة الباهرة .. شهق الجنين بفرحة الحياة ..

جهودنا وحبنا وعلمنا أثمر – مدينة –

بشر كثير .. صناع وبناة ونساء نابهات .. تساندنا تلاصقنا .. توحدنا .. ووضعنا – مدينة – أم .. عروس .. طفلة لنا ..

من معجزة خلقها أنها تبلغ « الرشد » ساعة ان تولد

.. ويتم نضجها .. شاهبته يبتعد .. ونحن نحتفل بفرحنا ..

(ذلك البناء الصعب المنفرد ..)

* * *

أعيش حلما ساطعا تحت وهج الشمس .. وفى الظهيرة ..

عاملنا الجريح – سلمت يده – يتصاعد صوته كالمد ويرتفع مع الساعد المشرعة فى الظهيرة ..

يسأل من مكتبه – فى العاصمة – إن كانت الترتيبات الأخيرة قد أعدت ..

أطللت على مدينتنا (الطازجة).

اكتملت .. تزينت – تمت كل اللمسات الأخيرة – تبدو مدينة مقدسة – شيدت فوق هيكل هائل أو مسرح كبير ..

عن قريب يرفع عنها الستار فتضج بالحركة والحياة ..

– تساءل أين ذهب الصوت الذى يتحدث إليه –

(هزنى صوته .. نبراته تكشف عن دفء واهتمام)

كان صوته « باردا » .. محملا بالحدة « الباتره »

اليوم يقطر مودة وعذوبة .. يترامى فى شوق إلى التواصل والحوار ..

أين سمعت مثل هذا الصوت من قبل .. الصوت الندى بالوعد .. الواعد بالأمل ..

(رؤى أحلامى البعيدة .. ونداء ملاحى القديم)

عاد صوته يسأل : إلى من يتحدث ..

(راودتنى نزوة الجنون المفاجئة .. الرغبة فى جعله مشدوها .. ذاهلا) : تعنى اسمى .. من اكون .. أنا

– مدينة .

* * *

كانت الشمس تنوب على صدر الأفق الوردى .. ونحن جميعا نسبح فى بحر من نور ..

غدا موعد الاحتفال – مدينة جديدة –

تدخل خريطة الأحياء .. تضم إلى جسد الأمة .. تسجل فى كشف المواليد .. مولودة : مدينة ..

من رحم الأرض .. وظهر الوطن ..

تثبت جنسيتها ونسبها .. ويصير اعلانها فى الأوراق الرسمية للبلاد ..

هبة من الخالق لأرض مصر الطيبة .. ذات القرار والعيون ..

غدا تموج بالسكان .. وتزدحم الأسواق بالاهالى .. وتنتشر فى الطرقات أريج أنفاس البشر .. ويتطاير من الشرفات الغسيل ..

وتيكاثرون .. يولد فتيان وبنات .. وتتسع حدقاتهم بالحلم والمعرفة .. تتمو لديهم (أفكار دافئة)

(اشتعل الدفء فى قلبى ..) شتلات الزهور من حولنا تبعث بأريجها .. رغم أنها جاءت منذ وقت قريب – يبدو أنها كانت هنا منذ القدم ..

وعاملنا الاسمر يناجى حبيبته التى تنتظر – فى الجنوب – (شوق تيقظ داخلى)

لاح بقامته كالشراع من بعيد .. أدار بصره إلى الحلقة الملتفة حول الفناء اقترب .. اشتد وجيب قلبى .. سمعته يقول :

– مساء الخير .. « مدينة » .

- ٢ -

حاضـرة البحـــر

o
o
o

هى الليله الحلم ..

ليلة الشعر بالثغر الجميل ..

سافرت على متن الشوق .. من نافذة القطار كنت أسابق الأشجار تهفو روحى إلى هناك .. تسبقنى إلى الوصول .. أتنسم عطر المكان.

(أستعين بالشعر على الحياه)

الشعر والبحر معا - فى الدنيا الكثير لتمنحه لنا ..

(أتصور نفسى فوق الماء .. تمد بى القصائد إلى الأعلى .. تتحرر ذاتى وتتسق مع حركة الموج .. تدركنى إشراقة الوعى .. أشهد بعثى من جديد)

* * *

تهلل وجهه حين رآنى ..

رأيته وسط دائرة الكلام .. فى موقع القلب من شباب الشعراء..

- لم أتوقع حضورك

- علمت بوجودك

- نسيت أنها مدينتك ..

. الاسكندرية - حاضرة البحر -

– لم أحضر لهذا السبب

– هى ليلة الشعراء

– والشعر ملكية عامة..

– ٢ –

تنهدت بعمق .. سافرت عيناه إلى مدن وأحداث .. ومنارات قديمة

– مضى وقت طويل لم تبد فيه اهتماما

– عدت إلى الاهتمام

– أموت إذن راضيا

تصاعدت فى القاعة نغمات .. تناغمت أبيات .. عدنا نهوم بين الموانى البعيدة .. وقاع المدينه .. نعتلى صارى حاضرة البحر

(وإذا خلت الحياة من الشعر كيف كنا نحتمل ؟)

فى أيام عسيرة لم يكن لنا سوى مملكة الشعر .. نحتمى بها ونلوذ .. نركن إلى ترميم الذات .. نقاوم الانسحاب الداخلى – غُلقت دوننا الصفحات وأطفىء المسرح أنواره

صديقتنا الممثله تعد الغرفه مسرحا .. تقف بيننا وتؤدى الكلمات .. تعيشها وتحيابها – تقدم نفسها هدية .. تهبنا أشواقها .. تمرر الأبيات على تلك البئر العميقة الكامنه لديها .. تصعدها بعد أن تكون قد أزينت وربت .. كنا نضحك ونبكى – حسب ايقاع الشعر – نصفق وننشد معا .. تمسنا شحنه متوهجة وقوة مدهشه .. ظلت أقلامنا مرفوعه .. كذلك رؤسنا.

(نتفاهم دون الحاجة لكلمات .. نمتطى صهوة الشعر .. نعتلى الوزن والموسيقى نحلق بأجواء جديدة)

ماتت صديقتنا ذات ليله وهى تتمرن على أداء قصيد الشعر .. انحشر المقطع الأخير بحلقها - تطابق الموضوع والذات .. أحست باختناق .. تحشرجت الكلمات تكثف المعنى فوق القلب الرهيف .

يتوالى صعود الشباب الشعراء..

موهوبين ومجهولين .. نطرب وننتشى .. فرح حقيقى فى المكان - كان وجوده ضروريا هذه الليلة..

تنكرنا اللحظة معا .. طرقنا أبواب القصيدة القاتلة .. ماتت خلالها الصديقه

-٣-

ماتت شهيدة ..

بدى الإرسال على موجه واحدة .. رتلناه بخفاء داخل صدورنا .. « عبثا يجدون فى عينى آثار خوف »

(نتفاهم دائما دون الحاجة لكلمات) .. التقت نظراتنا .. قلت له :

- رأيت بعينيك يوما آثار خوف ..

انطلقت منه صيحه مفاجئه : ألهذا هربت ؟

صمت تماما تابعت قصيد الشعر

عاد يهمس باسما : وهل عاد البريق الآن ؟

- شعاع غريب .. يرقد فيه الجنون والحكمة معا.

هلل وهو يتمايل مع الشعر الخارجى ..

- قلت لك أموت الآن راضيا،

انتعشت حركة الذكريات وبرقت الصور.

في ليلة مـجنونة - كنا نجـوب طرقـات المدينه .. مدينتي يحتضنها الظلام)

قال : لا أنسى هذه العبارة أبداً

كان صوتك يقطر حبا وحنانا .. أحسست في تلك اللحظة أني أحبها .. مدينتك .. أحبك مدينتي ..

قلت : تلح عليّ ذكـرى هذه الأيام .. تحـيط بي المشاعر والأحداث ..

- أنت جديرة بالكتابة عنها .. بالتعبير عنا ..

كنا مهتمين ومهمومين لكنا ندور حول أنفسنا نريد لنر موقعنا من المشاركة ..

اكتبي عن الأحداث كما وقعت تماماً .. بكل ردود أفعالنا .. الحب والحلم والحسرة معاً .. لتبق من بعدنا وتصنع تاريخاً. تسرعت وقلت : أهي وصية ؟

وبسرعة أجاب - يمكن أن تعتبريها كذلك.

-٤-

وصلنا الـى بيـت الأسرة القـديم .. يقبـع بجانب البحر ..

رأى فيه أبي لأول مرة ..

تأمله طويلا أبي .. ولم يعقب ..

فجأة قال له بحدة - وكأنه يدفع عن نفسه فكرة أن الرجل يمكن أن يسلبه شيئا أعز ما لديه ربما ..

- أكدت لابنتي انها مهما ابتعدت وصنعت بنفسها فليس

لها سواى فى النهاية ..

تمتم لنفسه : بل كلنا لها.

نظر أبى بشك وريبة ..

صحبتنى أمى إلى الغرفة المجاورة : هل معنى ذلك أنكما ستتزوجان؟

(بل معناه يا أمى أننا نعمل معا .. تجمعنا وتفرقنا قصيدة واحدة)

طالت وقفتنا والصمت بيننا .. والليل فى صفحته الأخيرة قلت : هل تصعد ؟

(لم أكن أعنى أن يفعل .. رغم الشوق والشعر وحدة الذكريات أعدت سؤالى - هل تصعد على الأقل لتشرب كوبا من الشاى ؟

أنت لا تريدين ..

حتى لوفعلت .. ستقولين بعد قليل .. اذهب - فالوقت تأخر (يقرأنى جيدا هذا الرجل - نتفاهم دون الحاجة لكلمات)

ابتسمت وكأنى أدلى أمامه باعتراف.

احتضن يدى بشدة - أودع قبضته عمرنا كله .. والبحر والمد - قال وصوته يقطر دموعا وودا - "أنصرف الآن ربما أجىء فى يوم آخر .. فيه متسع من الوقت .."

ذهب بقامته المديدة .. ووقع خطاه .. فى أتجاه البحر قميصه أبيض ويحتضنه الظلام.

- ٣ -

اغنيـــة البحـــر

ooo

« هيا نغني يا فتيات »

جاءت غريبة دعوة الغناء

– كمن أخذن على غرة وأصبحن في غمرة وعدنا من الخائفين – انقطع التيار الكهربائي فجأة .. وعم البيت الظلام .. وتراقصت المخاوف والأشباح حول الأشجار ..

حدث هرج ومرج داخل « قلعة البنات » .. سرت في الجو صيحات .. أنات حسرة وتنهدات – والامتحان على الأبواب ،

« تعالين نمرح ونغني »

تريد لنا البهجة في الظلام – رغم حزنها المقيم – تود أن تزيح عنا الرهبة والقلق .. تجعلنا نناجي الحلم بصوت مرتفع ونتصل بأسباب الفرح والغناء

– ماذا يجدي البكاء ؟ – الشكوى والأنين والإشفاق على النفس .. يضيع الوقت سدى .. يتسرب بين أيدينا .. وتتبدد ثروة اللحظات المفعمة بالحياة .. تنتثر هباء.

– بالغناء يمكن أن نحسن في الأسلوب والأداء –

« كونوا على استعداد دائماً »

مديرة البيت لها روح بحار.. مثل المتصوفة الأتقياء والرهبان الشجعان. ترى أن نكون على استعداد للمواجهة .. نجعل انفسنا متاحين للنور والأنواء. تكون لدينا المبادرة

.. نتصرف بحزم وأين واتساق – نثرى الروح بما نفقد من متاع – نقول : إذا استسلمنا للقلق والاضطراب .. نخذل أنفسنا وعندما يعود النور تكون العتمة نفذت إلينا وأصابنا الوهن والانكسار.

تعرف ثقل الأحزان .. مرارة الفقد وحدة الفراق ..

(أعرف قصتها .. أول قصة تروى لنا عند دخول بيت الطالبات .. مات حبيبها فى الحرب .. أرادت الانسحاب من الحياة .. تدخل الدير .. وتواصل الخدمة فى مملكة الله).

« دعونا ننصت للموسيقى داخلنا »

نشحن تلك الجذوة المتقدة بالأعماق . نتصل بنبع النور .. نفتح عيون القلب ونستقر فى الصمت العميق. جوقة صغيرة فقط تستعد للنشيد والغناء

(لها روح بحار وحس راهبة)

رأت أن ترعى فتيات يتطلعن إلى العلم والمعرفة، ياتين من كل شق عميق .. من بين أزقة ضيقة وقرى نائية .. من أسر تقاليد جامدة – مهمة تليق بها ويمكن خدمة الرب فى كل مكان.

« لنصلى وندعو لأحبائنا .. من سبقونا فى الرحيل والإقلاع » نرسل رسائل حب وشوق ... نبث فى الكون نغمات ود وحنان نعمل لنكون جديرين بحبهم.

« رددن معى أغنية البحر القديمة » – فارس يخب عبر البحار والمحيطات .. أعيدوا فارسى إلىَّ .. أخذوه منها فى ذروة الربيع والشباب .. صوتها قيثارة السماء يعلو بنا درجات. يشق البحر يطهر من الشرور (أرى

حبيبى هناك .. بين المياه والسماء .. من البحر يجيء يلوح كومض الأمل الموعود) .

أرتجف مثل عصفور صغير .. يشرق صوتى بالدموع .

أواصل التدريب الشاق وأنادى على بحارى الجميل .

قريب جداً..

بعيد جداً..

ooo

تتحرك قطع الشطرنج كراقصات الباليه تتقابل .. تـفترق .. تهرب مـن قلعة الخصـم أو تثبت للمـواجهـة (أنصت لعزفها الداخلى أتبع إيقاعها بشوق وقلق)

تتقدم .. تتأخر - فوق مربعات مقدرة - تتصاعد .. تلتحم - تركن للفرار أو تكمن للمناورة.

لعبة ذكاء ونضال - ترسم خطة للمستقبل وترصد حركة التقدم.

تجعل من الصراع متعة فائقة.

(يشتد وجيب قلبى .. شيء كالخدر اللذيذ يسرى فى دمى .. تعودت الصبر الجميل وموهبة الانتظار والمتابعة)

تحلق أفكارى مرغمة .. تطير مساحات شاسعة .. تجوب ساحات من الذكريات والرؤى ولا تلبث أن تهبط فوق الرقعة الساحرة .

لم يكن سمعى أو بصرى معزولا عنهما - رغم الكتاب الذى بيدى أتبعهما .. تصلنى من حين لآخر آهة مترددة .. همسة واهنة .. شهقة خافتة .. كلمات متقاطعة .. - نقله .. ثغرة -

يحتل الطرفان خانة حيوية من قلب الميدان .. حركة تمشيط للموقع والذاكرة أرفع رأسى من حين لآخر عن الكتاب (أحاول لأخفى قلقى ومشاعرى) أبذل مجهوداً

مضنيا والجلسة باتت مؤرقه .. الكون كله مرهون بتحريك قطعة صغيرة من مكانها - خط النهاية يبدأ بنقلة واحدة.

اللعبة لا تستهوينى فى حد ذاتهـا .. ولا نتيجة السبق ما أبغى وأرتقب - اللذة تكمن فى طريقه الصراع ذاتها (القانون الأساسى للنزال يقول ابتكر ما شئت من الحلول.. فقط حافظ على سلامة قواتك والمهمة ولا تفوت فرصة للفوز .. اغتنمها بقوة وشرف)

أود شيئاً عسيرا حقا - صورة مماثله لما كان يحدث غالبا

- ٢ -

- تحقيق التعادل كان الراحة والرضى والاختيار الصعب دائما -

(عالمان فى الرياضيات العليا وبينهما مسألة معقدة .. ويقدر التنافس يبهرهما الحل المبتكر - قائدان فى المواجهة يملك كل منهما زمام المبادرة ويعرف ما يفكر به الآخر ويقدره)

الوقع بطىء .. التقدم محفوف بالخطر .. روح المغامرة أسيرة التعقل والثقة وعدم المبالغة فى تقدير القوى .

- الخط المستقيم هنا ليس أقرب الطرق .. لا يمكن أن تسير بحصانك فى خط معتدل .. تعرضه لضربة مفاجئة .. يأكله جندى نزق. تنشط المباراة فجأة .. يصعب التنفس .. تتسع دائرة المعركة (أكاد لأسمع صهيل الخيول .. صليل السيوف - زلزلة القلاع .. وضجة المفارقة - هل تتسع الرقعة لثلاثة؟)

- أنتم الثلاثه أعز من لى فى الحياة.

قالها ووجهه الأسر محاط بالضمادات .. وجسده مغلف بالأربطة .

- أنتم معا .. أحب من لى على الأرض

حاول صديقه المرح - مازلت تفضل علينا الطائرة

تلفت حوله بأسى - لابد تذكر ما حدث - لم يقل سوى أن نوراً وهاجا غمر غرفة القيادة فجأة .. وأحال كل شيء إلى وهج .. لم يستطع الرؤيه جيدا .. أفاق ليجد نفسه فى المستشفى ونحن نطل عليه بقلق.

- كان هولا ما نرى .. جروح ودماء .. معدات وأطباء .. حركة دائبة - مشهد سيظل محفوراً فى الذاكرة)

- ندافع عن أرضنا والنصر ثمنه غال

(غالى الانتصار .. أحباء كثيرون مضوا .. غاب عنى شهيدى بينهم) صاح الفتى : أقترب من الهدف

وقع الكتاب من يدى - آخر معقل للاحتمال - رفعت رأس متطلعه .. صحوت من غفوة غامرة .. هما ما بقى لى - ابنه وصديقه وذكريات حبنا المشترك.

هل تتسع الرقعة لثلاثه ؟

- ٣ -

لم أكن لأتدخل مطلقا .. ولا أعلق على سير المبارة .. لم أحاول ممارسه اللعبه لم يدعنى أحد للمشاركة.

قالها يوما - تقفين بيننا كالحكم.

أحبها اللعبه الشيقه الجلسة المريحة المؤرقة .. يبعث حيا على متنها .. يركض فوق ظهور جيادها .. أراه بيننا قائما

(حماسه للطيران والشطرنج مرتبط بحب الحياة والوطن)

الفوز يستغرق كل تفكير الفتى .. منافسه يستطيع وهو يركز فى عين المربع الأسود أن يرقب ما أفكر فيه .. ويتبع معى تداعى الذكريات والصور .. لا يريد أن يمنح الشاب نصرا سريعاً أو هينا (يريد ليمتحن قلبه .. يشحذ قدرته .. يثير تحديه وصلابته .. يمكنه من أن يكتشف قوته ويجذبه إلى دائرة المعاناه للبحث عن حلول دائما)

تعبت من التركيز والمتابعة .. من تحليل الموقف وخطوات اللعب .. عدت إلى الرؤى البهيجة الماضية .. (فى البداية لم أكن أتصور نفسي يوما زوجة لطيار، تعجبت النساء من حولى، مغامر عنيف يهوى الطيران ويعشق الطائرة .. يهجرك معظم الوقت) - لم يعرفن مثله أبدا .. اللحظة معه تساوى عمرا بأكمله ..

قال : قيادة الطائرة تفوق متع الدنيا كلها

- ماذا لو لم تعد

- لا أستطيع أن أعدك بشىء

- بدونك كيف أحتمل

(تمنيت بعدها لو لم أقل هذه الجملة مطلقا)

قدرى أن أظل معلقة بالسماء هكذا .. أقول وداعا وإلى الملتقى.. أرقبه فى الفضاء الخارجى .. أتجمد من الرعب لو مالت طائرة،

- الموت حق

قالها مرحا راضيا " فى بطن الحوت أوفوق السحاب .. لا تدرى نفس ماهو مخبوء لها. "

ولكن اطمئنني عقدت ميثاقاً مع الطائرة - أموت ولا أعرضها للتلف

- أخاف الطيران.

- لكل منا ما يخافه ويخشاه..

هناك من يرتعد من الماء .. يخشى سكنى الأدوار العاليه ..
أنا أضيق بالسير البطىء .. أختنق وسط الزحام - أتمنى الموت محلقا.

(جاءت ميتته كما تمنى .. نفذ المهمة وأنقذ الطائرة .. عاد بهـا إلى الأرض سـالمـة .. ترفق بنا .. عـاد لضـمنا بعينيه ويقـول " أنتـم الثلاثه معـا .. أعـز من لى فى الوجود .."

أبدى الفتى حركه صاخبة .. حرك قطعة من مكانها .. تحركت عيون الصديق باهتمام

- المخاطرة كبيرة

- الكسب أكبر

(بدا عليه التركيز والاهتمام بالفعل - المفاضلة بين حلين متساويين فى القيمة. عملية التفكير لديه لاتجرى على مستوى المنطق فقط بل يمد بهـا إلى مناطق الإلهام المبدعة يتبع أسلوبا هجوميا وعايتا - فى الحب والحرب .. هو وصديقه لهما نفس أسلوب المواجهة ..

قلت يوما : الطائرة تقف بيننا

- كلانا يهـتم بهـا .. والاهتـمـام المشـترك يربـط دائما

نعم - على زوجة الطيار أن تتحلى بروح الجندية -

التزم اللاعبان الصمت تماما .. جذبت زجاج النافذة .. تدفقت نسمات منعشة " الهواء النقى يعين على التفكير"

أذكر مبارياتهما معا .. عسيرة وممتعة ـ

ندان فى كل شىء .. الأداء والأسلوب والعمل ـ صداقه منذ الصغر ـ فى قاعات الدرس ودروب القرية ومربعات اللعب.

حتى فى الطلعة الأخيرة له .. وعد صديقه بالعودة لتكملة الشوط معه ..

قلت مرة ـ تكاد تنسانى أثناء اللعب

يختفى وجودى ربما

رد مداعبا : بل الغرفة تضج بك

ولاتنس الفوز من أجلك أيضا.

ـ ٥ ـ

استغرقت اللعبه يومها الليل بأكمله .. جولات كثيرة تنتهى بالتعادل غالبا .. فى تلك الليله ـ التعادل لـم يرق له ..

فتح ذراعيه كأنما يحتضن الحياة ذاتها ..

ـ ليبق الوضع على ماهو عليه ..

والموقف فى حد ذاته يعد انتصارا لنا.

فى هدأة الليل الجميل همس بصوت يقطر حبا وبراءة

ـ أرى أنه يصمم على الفوز من أجلك

(كان الواجب يقضى علىّ بعدم الرد والتزام الصمت)

ـ الفتى لأبيه .. له نفس الصمود والمرح

والصديق يحفزه على التفوق .. يدربه على عنف المقاومة

(وفاء لذكرى الشهيد للوعد الصامت بأن يرعى أسرته - ومن أجلى ربما ..)

« الطيارون سلالة خاصة »

(الالتحام بالمهمة والطائرة .. التدريب المشترك .. رابطة أقوى من الدم)

يقول عنه « توأمه »

- الطيران يخلق ودا وقربى

« لو أننا فى أقصى الأرض .. تفرق بيننا القارات والمحيطات .. نحلق فى سماء أجنبية لقمنا بما يجب عمله بنفس الطريقه وبدون اتفاق مسبق. نحمل أرواحنا على أكفنا ونضحى من أجل الواجب والوطن »

يهتف فى سمعى ودمى « ماذا تظنين ؟ الصعود إلى السماء يقتضى عشقا وتوحدا .. فى كابين القيادة يغمرنى النور دائما »

كانت آخر كلماته قبل أن يمضى .. يحلق فى مسرى النور وهو يبتسم .. لم يعرف تماما ماذا حدث - سوى أن نورا أخاذا نفذ إليه واستحالت الرؤيه بالبصر تحول كل شىء إلى وهج ..)

فى هوة الحزن سمعت أنين صديقه « كنت أفضل أن أكون أنا .. له ابن يريده » زلزلتنى العبارة سمعتها قبل أن ينطق بها ..

تنبهت على قلق الصبى عندما يغيب عنا « هل يتركنا هو الآخر .. هل نفقده؟..

فى مناسبات شتى يجىء .. يكمل حديثا بدأ .. يسأل عما يحيط بنا .. (يجىء كومضه الدفء .. نسترسل فى الذكريات .. يرف طيف الحبيب بيننا) فى المرة الأخيرة قاس طول الصبى فوق صدره

- صرت رجلا الآن..

نظر إلىّ طويلا .. قال - جاء دورك أن تعتنى بها .. واستعد لجولات قادمة

مكث طويلا هذه المرة .. انطلق فى الحديث والمرح .. مباراة الشطرنج تعيد دفء الجلسه وأنس المصاحبة .

قال مفكرا - له نفس أسلوب أبيه فى اللعب

صاح الفتى : لهذا السبب لابد أن أغلبك

- فكر قبل أن تحرك شيئا من موضعه

- نقلة واحدة وأكسب

- انتبه .. النصر قريب جداً .. وبعيد جداً

قالها وتطلع إلىّ (له عيون ترقب ما أفكر فيه .. تتبع المعانى والصور .. تنفذ داخلى)

فى لحظة واحدة أدركنا سر الموقف وعمق إحساسنا

تنتهى جوله الشطرنج بالتعادل غالبا ..

« يبقى الوضع على ماهو عليه ..

أحسست به قريباً جداً .. بعيداً جداً .



مـــزداد

o
o
o

سمعت صرخته .. أغنية الخروج !

من خلف البـاب المغلق .. يجيء بكاؤه المتـقطع .. كشهقة من خلال ماء منهمر.

خرجت الممرضة .. بين يديها صرة بيضـاء داخلها الجسد الطرى ينتفض برعشة الحياة الأولى : يخفق قلبى خفقة الحب لأول مرة.

تحلقنا حـولهـا .. رفع جـفنه إلى .. غـشـينى مس خفيف .. خدر لذيذ .. ومضة نور انسكبت داخلى .. دائرة ضوء كـإكليل ارتفع وأدخل رأسى فى مـجـالهـا . أكـاد لا أصدق .

شاهدت ميلاد كثير من الأطفال.. ولدت عدة مرات « النخلة ذات البنات الخـمس » كـان يرانى .. ويشـيـر إلى باسما .

العيون كانت تبدو بعيدة مسحوبة إلى أمـام .. معلقة بأفق الغيب .. وشيئاً فشيئاً ترتد بصيرة .. تتعلق بوجه الأم .. ترتوى بنور الوعى .. ويدركـهـا الإدراك والدهشـة وخيوط المعرفة.

ويولد الغد فى دمى .. ويكور سلم الزمان فى يدى

(أسـري بى بيـن العـصـور والأمم وأرى جـدى وأبى .. أمى ودورات دماء وحياة .. كرات كثيرة .. ودوائر تتقابل وتتسـع .. تتداخل حلقاتهـا .. وأجدنى داخل محـارة فى قلب الماء تنتفض وتتنفس حياة وتنطلق إلـى

الشاطـىء الفسيح).

رفع الوليد عينيه إلى .. ليست كعيون الأطفال .. تجمع بين عالم الغيب والشهادة .. ويومض شعاع المعرفة.

(قلت لا أنسى هذه النظرة أبداً)

قلتها من قبل ذلك .. والوضع مختلف .. فرق بين نظرة المجىء .. ولمعة الرحيل . يوماً أحاطت بى نظرته .. بحور حنان ودفء وانسحاب قطرات النور من الأفق شملتنى والبيت من حولى .. تسبح فى مساحات الفراغ وبين الأثاث والأشياء والمفردات .. نظرة وديعة مسالمة .. مسحوبة إلى أمام .. تعود إلى ملكوت بعيد لم يعد يعنيها شىء تلثم وجه أحبائها قلت لنفسى : (لن أنسى هذه النظرة ما حييت) تنبهت للمعنى الذى أحاط بى .

لحظات الرحيل تكور النفس فى نظرة واحدة .. ظلت ممتدة .. ترتفع عنى.. تعلو فوق وجودى والزمن..

مشدودة للأفق العريض .. تسبح واهنة فى بحور الغيب .. وأظل شاخصة .. مقيدة القدمين .. ذاهلة .

معلقة بين الماضى والحاضر .. محملة بالغد الخصيب ليولد فى أعماقى من جديد ونعود من الأفق الرحيم فى كرات متعاقبة.

مرة أخرى يرفع الوليد جفنه إلىّ .. نظرة مبللة بالوعد تنزل علىّ من بعيد يحدث لى شىء غريب حقا أشعر كأنى خارج الزمن .. أشهد مولده .. أنقلب إلى اللحظة المبدعة أشهد خلق المعجزة .

هتفت ابنتى من فوق كتفى : فيم يفكر ؟

إذن فقد لاحظت هى الأخرى .. ومضة المعرفة فى

نظرته .. لست وحدى .. لم أتخيل ولم أكن واهمة.

ارتدت النظرة المعلقة بحضن الغيب .

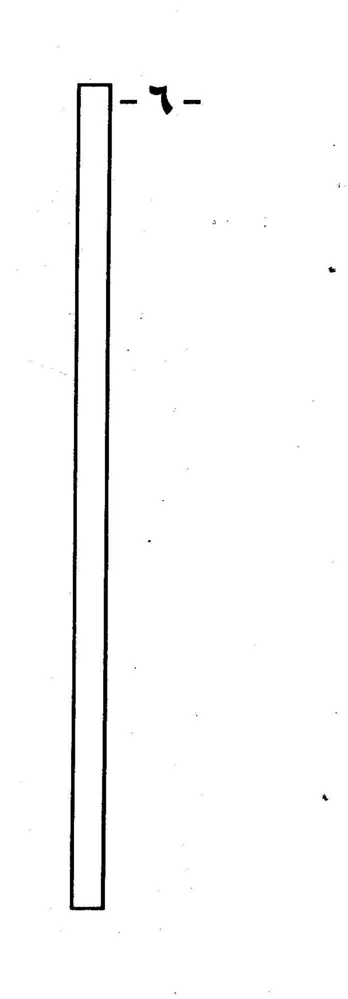
وجدتنى أهتف : عدت ياحبيبى؟ أصوات كثيرة من حولى .. هل اخترتم له اسما ؟

هتفت من أعماقى .. زياد هللت الصغيرة .. زياد يا أمى .. فتح الأب ذراعيه بفرحة .. جاء لنا زياد ضمتنى صديقتى - مزداد - فى زيادة وسعة دائما.

الطبيب خرج محييا .. أشهد كل الأشياء .. أسمع كل الأصوات .. أترك نفسى بين ضم ولس وعناق .. لكنهم لا يرون ما أرى .. أشهد مولد حبيبى .. أعرفه طفلا كبيرا واعيا .. أمه لا تزال بالداخل أستقبله ونولد معاً من جدي.. أحتضنه وأنا جدته الآن ... وأنا شابة صغيرة .. وألتقى به فوق الماء .. يمتطى جياد البحر ويترجل فارسا من رسوم السحب المتحركة .

زفاف لم يشهد العالم مثيلا له .. ثوبى قد من سحب شفيفة وطرحتى .. يزيحها بيديه .. ينظر فى عينيى نظرته مبللة بالوعد .. أسميه «زيادا » فى قصتى ..

اليوم يعود .. تحدث المعجزة .. ويورق الغد فى دمى.



المنـــــدوه

o
o
o

مهدنا طريق الكباش إلى الصعود

بنيان مرصوص يسلمنا إلى قلب المعبد ..

نغمات متتالية تعلو وتفيض .. طريق ممدود من الجمال إلى الجلال، تستقبلنا الأغنام وهى قعود .. تربض أجسادها بقوة .. تومض عيونها بكبرياء وحنان وتسليم عجيب.

أخذت الأعمدة والرءوس تكبر ونحن نصغر .. نسرى فوق سلم الزمان، نتقلب بين ترانيم الرعاة وتراتيل الصلاة .. تدركنا لذة الصمت العميق .

« المعبد كتاب مفتوح

القراءة فيه تكون بالقلب ».

يجيء صوت معلمنا .. تصغى منا القلوب .. نعود نتأمل بهو الأعمدة .. فى ساحة الكرنك حشد وحيوات كثيرة .. أجناس وبشر .. لغات وعيون - وتأتى كل نفس معها سائق وشهيد - وهو بعث وحياة ونشور .. بذرة الحضارة تنمو فى العمارة .. وروح البنائين تتبعنا حيث نكون وتجفل معنا على وقع عصا يهوى بها مدرس على جنوب التلاميذ لينظمهم صفا!

نود العودة للقراءة بالقلب من جديد..

فتى صغير يتبعنا على بعد .. كالشاه الشاردة يتقدم

ثم يتردد .. يضيق دائرة التفافه ليسمع معنا ..

« هى حزم من نبات البردى .. عمد مصفوفة .. مشيدة بالإيمان ..

بأعين الإتقان .. قديمة وتحوى رؤى متجددة .. منظومة تستقيم للأعلى » فتحات السقف ينفذ منها النور .. تستوى سيقان الأعمدة على عودها .. أرى براعم صغيرة مغمضة على أكمامها .. بتلات تتفتح لأشعة الشمس .. تسرى خلالها وترسم دوائر ذهبية لدى القواعد .. أكاد أسمع النسغ بأعماقها .. ووقع عصارتها الداخلية ..

ويبتسم شيخنا الجليل « المصرى القديم يصوغ الحجر بعروق الذهب .يضمنها كنه الأشياء وسر الوجود ». يقف فى دائرة الضوء الطفل الكبير .. يدير رأسه بين العمود والكلمات بدا مأخوذا بما قيل ..

يتعلق بصره بحبل النور صدره يعلو ويخفق .. يسمع بقلبه الغلام الصغير « استمعوا للمكان جيدا ..

كونوا صفحة بيضاء كى يكتب عليكم .. »

الفتى يرفرف مثل عصفور صغير .. يخبط صدره فرحا .. يقترب منى بشدة .. يتطلع إلىّ فجأة .. أود لو أحتضنه بقوة .. أعرفه جيداً .. أين رأيته .. إبن من فى المدينة .. حلمت به كثيرا .. أنتظره منذ زمن بعيد، أجده فى عيون الأطفال .. فى الحقول وعبر نافذة القطار .. تتبعنى عيونه حيث أكون ..

بغتة ظهر المدرس .. جاء غاضبا لكزه بالعصا.

- أنت .. أنت .. تحرك حاول اللحاق بالطابور ..

مابك ياولد .. مالك مندوه ..

أدار الصبى رأسه بيننا والمدرس .. كان يبدو صغيرا جداً بجانب العمود .. لم يعرف هل يتقدم أم يتأخر .. وما هو الاتجاه الصحيح؟!

- ٧ -

قامـــوس البحـــر

○
○
○

أغلى من اللؤلؤ والمرجان ما كان يعود به كل منا لصاحبه فى نهاية الرحلة ..

حياتنا تحددها حركة السفينة .. بين الإبحار والعودة تنسج شباك القصص .. وتحفل بزاد وفير ..

وحكايا شهية ..

يغوص وراء جوهر الحكمة .. ينتزعها من قلب بحر لجى .. ويغترف رزقا طيبا .

(قدر له أن يصنع مجده وسط شعاب خطيرة .. ويواصل اكتشافاته وسط دائرة الخطر)

يقول - وهو يضحك - وتشع ضحكته فى أرجاء البيت .. ونبض القلب ..

- السفن كلها تبتعد عن تلك الشعب المرجانية .. أما نحن فعملنا الاقتراب « الشديد » من الشعاب الدامية .. والإبقاء على ضوء الفنارات ساطعا .

(وعملى اكتشاف الكلمات .. وإحياء معانيها ونورها .. وخوض بحور الشعر والإبحار فى جوف الكتب ..)

مهمة صعبة تحيط بها نذر العاصفة .. ورياح السموم .. ومقاومة الغرق ... ويعشق كل منا عمله .. ويشغفه حبا عمل الآخر .. ورصيد تجاربه وخبرته ..

لم يكن الشـوق هو الذى يصـاحـبنا أيام الراحـة .. وساعات اللقاء ... لكنها هدهدة الحكايات .. والركون إلى ذاك الزورق السحرى يبحر بين النفوس والأحداث .. وخبايا المواقف والصور.

متعة « القص » نعمة خلقها الله لنا .. ودربنا عليها .. واستـمـعنا من لدنه لأحسن القصص .. وجعلنا نستلهم الحكمة فيها .. ونعمل السمع والبصر.

بتنا ليلتنا نحكى .. وساد العالم من حولنا هدوء بديع .. لديه أسلوب مميز فى السرد .. يستحوذ على المشاعر والانتباه .. يقيم مسرحا شاملا .. ويجسد كل حركة .. ويتذكر كل شىء بدقة ووضوح ..

يجعلنى أشعر بهبوب الريح .. وأشم رائحة البحر .. وألج غموض الضباب ...

(لديه هذه الموهبة - دون أن يفكر فى الكتابة يوما .. وكنت بصدد بحر لاتنفد حكاياته أبدا ..)

يستطيع أن يحول ملح البحر الى عذوبة .. ويزيح تلالا من التراكمات والرواسب رانت على النفس والفؤاد ..

حتى لو كانت القصة عن حرفية العمل .. والاشتغال بالفلك .. وقعها يمثل نوعا من القصيد .. ولو كانت « الحادثة » تحوى صراعا أو قتالا .. يشيع داخلك سلام عجيب وأنت تتأمل الحدث .

(الحـرب تدور فـوق الماء .. على الأرض .. وفى الأعماق)

- الموت أو الفوز

فى البحر لا مجال آخر للاختيار

والأمر كما يقول ملاحنا العربي القديم « نحمل أرواحنا على أكفنا - نحن الربابنة - ولا نطلع سفننا الا وآجالنا معنا فيها »

(صار لنا قاموس من الكلمات نستعمله فيما بيننا .. ويعنى حركة .. ونادرة واتجاه)

- والان أحكى لى المزيد ..

- هات ما عندك - بقى لنا من أيام الراحة يوما أو بعض يوم اقترب الرحيل .. فقولى ما ادخرتيه لى من حكايات وأمور ..

(فى يوم من الأيام - هكذا بدأت -

حدث أن ذهب لزيارة أمنا الغالية « نور » ..)

اعتدل فى جلسته .. برقت عيناه .. وميض الحب والدموع ... كانت البداية تعنى حديثا عن حبنا المشترك .. والذكرى المقدسة لدينا .. أشهى مادة للحكايا والحديث .. السيدة التى أرضى عن طيب خاطر أن تشاركنا لحظاتنا الحلوة .. وساعات اللقاء ..

(قالت عنها الفلاحات - يوم ماتت - « يابحر النيل » .. « بحر الكرم والجود » ..)

الحكايا عنها تبلغ « قاموس البحر »

(كنت قد عثرت على التعبير - فى أحد الكتب القديمة - أى أن الكلمات تغلغلت إلى أعماق النفس .. ونفذت إلى الباطن)

- « قاموس البحر » .. ياله من تعبير .. كشف مذهل .. أعمق مكان فى الانسان .. مياهه الجوفية العميقة ..

كيف قدر لك أن تعثرى على المقولة البليغة ..

ولكن لنعد إلى حكاية « الست نور »

(لها أيضا تعبير شائع فى قاموسنا الخاص .. دائما تردد : المهم فى الانسان « جوانيته »)

ـ كانت قلقه لتأخر ابنها الكبير ..

عندما جاء حكى كيف أن واحدا من الفلاحين تبعه حتى باب الدار ...

ـ يبكى وينتحب ويدعى أن ابنته ماتت .. ولا يجد ثمن « الكفن » لها ـ ضحك الجميع .. واستبدت به نشوة المرح والزهو ...

قال : أعرف مكر الفلاحين وخبثهم .. ربما ابنته فى هذه اللحظة تلعب فى الحقل .. أو تنتزع أعواد القمح .. وتقفز راء الزنابير ... ـ وهو يدعى موتها ـ ليستغل السيد العائد من المدينة ...

مرة أخرى تناثرت الضحكات والتعليقات ..

صمتت الأم .. أطرقت برأسها .. زمت شفتيها وشحب وجهها ... جاهدت حتى يبدو صوتها هادئا وهى تسأل :

ـ أعطيته ما يريد ؟

ـ أعرف أنه يكذب

ـ ومالك أنت .. يحاسبه من خلقه ...

المهم أنه سأل .. وأنت لم تجبه

ـ وهل أدعه يضحك على.

ـ وما كنت تريده أن يقول أكثر من هذا « لتعطيه » .. يكفى أنه تلفظ بكلمة « الموت » .. نطقها بعظمة لسانه ..

حوط بها ابنته .. ضناه .. هانت عليه نفسه - من فرط حاجته -

ما يصنع لك حتى يرق قلبك ؟

(ساد الجميع صمت مبلل بالإهانة والوجل)

قامت غاضبة .. انتزعت وجودها من جواره .. أغضبها أن يشعر بالزهو ... ويتيه مرحا ..

(مس ذل الرجل قاموس البحر لديها) ..

- أوجعتني بحكايتك .. أشعر بقلبي ينقبض .. انقباضة غريبة « ما بال حديثنا الليلة يتداعى « حتى الموت »

والوقت يتسرب من بين أيدينا ..

(موجة من ألم عبرت وجهه .. حاول بعدها التشبث بالمرح .. وحتى يغير مجرى الحديث)

- ولكن قولي بالله عليك .. من منا - نحن الأخوة - أكثر تشبها بها ؟ .. على صورة أمه -

- تريد الحق

- لاشيء غيره

- أنا

(جلجلت ضحكتنا معا .. أشعر بانتمائي إليها .. هي أمي بإرادتي ...

- وأنا قد اخترتها -

يقولون إن الإنسان لا يستطيع أن يختار أمه ولاوطنه .. يمكنه أن يصنع نفسه ليكون جديرا بهما -

- لم يكن حبي لابنها هو ما يربط بيننا -

لكن حبها « المستنير » للأبناء .. وغضبتها « للحق » وحكمتها التلقائية « جوانيتها الساطعة »

استبد بى الحماس ..)

- أرجـو عندمـا تحـين لحظـة رحيلـى أن تدفنى بجوارها

- لك أن تطمئنى يا حبيبتى

- أنا لا أمزح

- ما عليك إلا أن ترقدى بسلام

- أريد « وعدا » .. موثقا

(تذكرت دعواتها لى وابنها الذى يركب البحر .. تقول « الدعاء لكما يأتينى فجأة .. ويفتح الله به على » .. سيل من الدعاء ..

سـاعـات أنسى اسم والدتك .. طبعـا مكرمـة من الله وفضل .. عالية منزلة الأم يا ابنتى .. وعندما ندعو للأحياء - ننسبهم لأمهاتهم ..

قلت لها : اذكرينى باسمك أنت .. وحتى يتقبل الله العظيم ويستجيب لنا)

لم تستطع الدموع أن تخفت الابتسامة على صفحة وجهه ... لكنه يشرد بعيدا ...

قال : أحس بدعائها يتبعنى فى البحر دائما .. مثل الدرافيل الحانيـة ترقص فـوق الموج - وتدفع عنى الخطر

أشـعر بروحـها طليقـة .. تمتلك القدرة من الله على التجسد ... وإشاعة الدفء والثقة .. أغترف من حكمتها .. وبساطة أحكامها .

- أذكر مرة وقعنا في قبضة الضباب .. كنا نزحف ببطء وحذر .. لم نعد نرى أي أثر « للشعب » الغادرة .. ستارة ثلجية تلفنا بالرهبة والقلق .. تسدّ منافذ « الرؤية » حولنا .. وتمحو الطرقة المعدّة للسير مسبقا .. ليس أمامنا سوى مزيد من الصبر والحذر ..

أطلب من الماكينات « سرعة ميتة »

وضحكت .. بصوت لا يناسب رهبة المتوقف وتوتره ..

لكنه قال شيئا عجيبا ...

- تطلب « حركة » .. وتسميها « ميتة »

(عدنا لسيرة « الموت » من جديد)

- لم تعدني ..

- وعد « الموت » .. دعينا نذهب إلى عرض البحر

(تبكي الفلاحات .. سرن خلفها .. يدعونها « بحر النيل » .. عندما تنتهي « الرحلة » أتمنى الرقاد معها .. تحت تلك النخلة وارفة الظلال حتى « نخلتها » أم خصبة ومميزة .. تتفرع منها خمس نخلات شابة يانعة .. أرض حانية .. رابية .. ارتوت بدموع الفلاحين .. ونوب حبات النهر وخطو الرجال المتعبين .. والنساء الصابرة ..

يا لها من رقدة آمنة في رحم الأرض ..)

- عدني وحتى يطمئن قلبي

- أصبر على ما تقولين .. لأنه لو حدث .. وقدر لأحدنا أن يسبق الآخر في موعده أود لو احمل عنك العذاب - أحملك بيدي

ـ لماذا تتهرب اذن

ـ لأنه وعد لا نملكه.

(هكذا فى كل مرة تتداخل الحكايات بيننا .. وتتلاحم فصولها وتبحر بنا إلى آفاق بعيدة .. ورؤى تستشرف الأفق ..

حكايا دائرية تنتظر الرحلة القادمة .. وتظل « النهاية مفتوحة » هكذا تنتظر الرحلة القادمة ..

فى الليلة الأخيرة ـ والتى أشار فيها لاقتراب موعد الرحيل توقف العزف بيننا .. لم نعد نحكى ـ

أنضم إلينا كثيرون .. اختلت الأصوات والكلمات .. انتشر قاموس البحر .. همهمه .. وعويل .. كصوت « صفارة الضباب » المثلوجة بالعتمة .. مس كالحريق .. أو هو اختناق الغرق ..

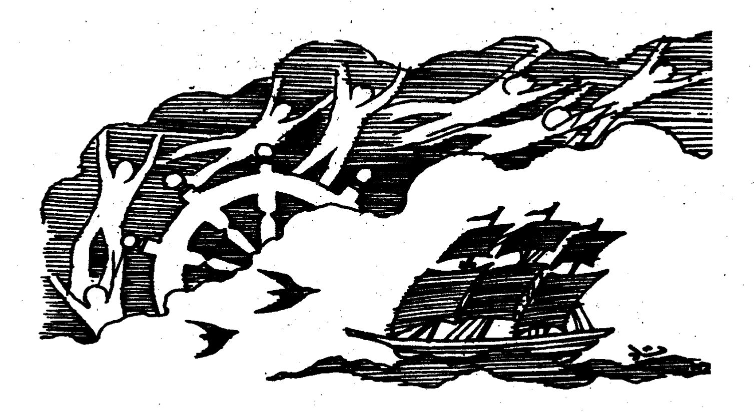
« السرعة الميتة » تزحف ببطء وازوجه .. مقبضة ..

ـ فى غرفة القيادة كانت آخر أوامره ـ ساعة وقعنا فى قبضة الضباب ـ حكى لى .. توقف السرد الشهى ..

أشعة الشمس ودموعى تتكسر .. يهتز لها سعف النخلة الشاحبة ..

(فتحة فى جدار الصمت .. يسرعون بالدفن قبل الغروب .. يوارى الجسد العظيم .. الذى يضج بالحياة .. ويغوص وراء الحكمة فى رحلة الاكتشاف .. والاقتراب الشديد من الخطر ..

له أسلوب مميز فى السرد .. وتصل حكاياه قاموس البحر » فى العمق ـ وعد لا نملكه ـ هكذا قال منذ ساعات ..



بحـــر -٣-

○
○
○

تأملته يقف بباب الشرفة .. وتشرق الغرفة من نوره .. (وقفة المشتاق) باسطا ذراعيه كأنما ليحتضن العالم .. (وعلى الأفق بحر لجى .. وموج البحر تملؤه سفينه ..)

توقعت أن يقول شيئا :

- أنى لا أجد ريح البحر

(كالمد تصاعد القلق إلى نفسى .. قلت أحاول المرح ..)

- إذن أبتعد عن الشرفة قليلا .. حتى تغمرنا الريح الطيبة .

أضاف وكلماته تموج بالحنين ..

- شهية ومثيرة .. رائحة البحر ..

فى النسمات برد مشبع بعطور الدنيا كلها ..

رائحة لا يمكن نسيانها .. تبقى معك مدى الحياة ..

(لا يفتأ يذكر البحر .. لا ينى عن ذكره .. عشقه الموصول بقطرات دمه .. المتصل بذرات وجوده .. كنت أحسب الكتب وحكاياتى شغلته عن حبه .. أو خففت من حدة شوقه ..)

الفارس يخب بجواده مقتحما الماء ..

عالى الهمة يرقب ذات ألواح ودسر ..
شديد العزم يود الإبحار ..
يترقب أن يمر الإعصار ..
يقف على استعداد ..

(ولأنه فى قمة تألقه .. وأوج لياقته .. يسطع بالحب ولا يعرف أساليب الإلتواء والمواربة .. تعلم من البحر أن يكون الإقلاع والإرساء دون ميل أو انحراف..

لذلك لا يفهم معنى أن يبرح مركبه أو يوصد البحر دونه.)

يرى البحر أوسع ما يكون ..

يسع أحلام الرجال .. وأرزاقهم .. ومجالا رحبا لعملهم.

وعلم البحر علم نفيس يمكنهم من الصمود والوصول .. وشق طرقات جديدة.

شهرته طبقت الآفاق .. لم يغرق مرة صندلا أو مجدافا .. ولم يجنح به « جوجو » .. مركبه يعود من كل رحلة بشحنة هائلة من المحبة والتفوق .

يحفظ المهمة والسفينة ..

يترك أثرا طيبا « وخلقا غريباً نادرا » فى كل الموانى البعيدة ..

- فما معنى أن يلوى البعض ألسنتهم بالقول .. ويريدون لسنة الحياة تبديلا .. ويبغونها عوجا -

لا يكاد يصدق أو يتصور إستمرار الحال هكذا ..

ربما هناك خطأ ما .. خلط .. عدم دقة فى القياس، ميل فى تحديد الاتجاه .. ولكن لابد من عودة الانضباط .. وتصويب الموقع .. وسلامة الدقة ..

- ولأنه يؤمن بالاستقامة .. ولا يعرف طريقا غيرها .. فهو على يقين من ضرورة الإصلاح .. ولايلبث أن يأتيه طلب الاستدعاء عاجلا ..

فى الغد .. أو ربما فى الغد التالى والقريب .. لابد يحدث أن تجىء برقية .. يقرع الجرس .. يدق التليفون .. يصل المبعوث وتأتيه الإشارة وهو حاضر ومستعد - فواجب البحار وعمله الأول أن يكون على استعداد دائما ..

(ومنذ البدء يتعامل مع قوى الطبيعة .. ويرى الصراع دائما فى المواجهة .. ويظن ذلك فى المجتمع)

تبدو مشكلة مستعصية .. إذ لابد له من بحر ومركب ..

والأمر كما يقول شاعرى المشرد « لو أننا وآباءنا الأولين .. قد كدحنا طوال السنين - وادخرنا - ما اشترينا خاتما أو سوارا »

وفى حالتنا .. ما ادخرنا قاربا أو شراعا.

(أزمته تبدو كمأساة فلسطين ..

يهوذا سرق الأرض .. غلقها دون أصحابها ..

صاروا غرباء .. منفيين ولاجئين ..

لكن لابد من العودة :.

الثورة أو الموت)

الأرض والبحر ..

هنا فى قرننا العشرين من يسرق بحراً .. ويغلق وطناً. يحرم « الإنسان » وقد خلق من ماء وطين .. من بعضه من معنى أن يكون ..

قال .. أعمل مع نفسى كثيرا فى الآونة الأخيرة ..

حاولت أن أثنيها عن أشواقها .. أركن للقراءة ..

أستعين بالصبر والتلاوة .. وكل الأشياء أجدها تجذبنى إلى عالمى .

(لا يصلح لحالته إلا عمل البحر .. ولا يليق بطاقته غير عنف البحر)

- ووجدتنى فجأة وكأنما قوى غريبة انسكبت داخلى .. واندفق على النشاط والحماس ..

غمرتنى اليقظة والعافية ..

وشممت عطر البحر ..

أعرف .. إن هى إلا علامة .. نداء خفى

(حقا اشتعل الجسد منه قوة وفتوه - كما رأيته منذ البداية - ماذا يصنع بكل هذه الطاقة ..)

أخذ يقلب كفيه .. يشد قامته .. ويدق برجليه فى وضع انتباه ..

- هذه هيئتى .. ووقفتى فى غرفة القيادة ..

« كان » ..

انقطع الحديث فجأة (تنبهت أنه يستعمل فعل « كان » .. لا ينطق بصيغة الماضى أبدا فى حديثه عن البحر ..)

ـ يؤسفنى أن أقول « كنت .. أو كان » ..

تعاوده نوبة المرح .. لا تصدقى وقعها .. إنها صيغة الماضى الدالة على المستقبل

ولكن لماذا لا يستدعوننى ..

لا يحددون موعدا للإبحار ..

ولا يتعجلون منى الرحيل ..

المركب مهجورة .. أخشى أن ينالها العطب .. الصدأ .. تثقل قاعها حشائش البحر

يضحك فجأة فيطوى شراع الأسى ..

ـ فى حفل تسلمنا السفينة .. وبعد عدة محاولات لتعويمها للمرة الأولى قال عنها ربان الشركة .. هذه المركب لا يقودها إلا « مجنون » ..

(أغوص معه فى محاولة للبهجة .. أحاول شد حبل الذكريات ناحيتى ..)

ـ نطق الرجل صدقا .. صحت نبوءته .

ازداد حماسه وتوهجه، هى « جنونى » بالفعل .

ومع ذلك فهى رطبة العنان .. سلسة القياد ..

حانيه .. لم تخذلنى أبدا .. وتلبى أوامرى ..

توقف عن الاسترسال .. كأنما تلقى أشارة .. أو استقبل وحيا ..

ـ هذه ريح البحر .. أتنفسها ..

واضحة .. جلية .. هل تشعرين بشىء.

(لديه هذا الاحساس الملهم .. يستشف الافق ..

ويصل حسه إلى آفاق بعيدة ..)

- اذا قلت أنك أيضـا تشـعرين بشيء مـا .. يرتفع الإحساس لدى إلى مرتبة اليقين

(هذا التدفق .. واليقظة الداخلية .. التوهج .. والرؤى البعيـدة .. أعرفها لديه جيـدا .. لابد أن حدثا هاما سيقع ..)

قلت .. أحس بدنو حدوث شيء ..

أما ما هو هذا الشيء بالتحديد .. فلا أكاد أبين

- أنا أعرف .. ليس ما بي وهما أو خيالا ..

رؤية حقيقية .. هذه رائحة المياه العميقة .. عبق الخلجان والشعاب المرجانية السحيقة ..

(أبذل جهدى لكسر حدة الأشـواق .. وتلافى نذر الإعصار. كم تحمل وصمد ..)

قلت .. خلقت على هذه الصورة من العنف ..

لابد لك أن تحرث البحر أو الأرض ..

- وهو ما يناسبني .. ويرضيني تماما .

لا أصلح لعمل آخر ..

أما أن أحرث البحر .. أو أفلح الارض ..

وكأنما يناجي نفسه ..

- ربما لو وجدت قطعة أرض فى قريتى لشغلتنى عن البحر .

إنها مهنة آبائى وأجدادى ..

أنا فلاح من صلب فلاحين

توقف فى انتباهة شديدة ..

- هــــذه ريــح الأرض .. رائحــة الأرض المروية حديثا ..

أعرفها هذه الرائحة المميزة .. سندبيس .. قريتى النضرة المترعة بالآلام ..

عطر طينها هذا الذى يبعث من حولى .. سقيا أرضها تدلى داخلى ..

سندبيس .. بحر ٣

طوفت شتى المحيطات .. وخدمت فى البحرين ..

البحر المتوسط .. والأحمر

وهى دائما بحرى الثالث الذى ينتظرنى

(سندبيس .. يال القرية الرائعة .. بحر ٣ بالنسبة إليه)

- تصورى .. توقعت دائما أن يكون موتى على مركبى ..

وسط الشعب المتوهجة فى الطور العظيم ..

بحر موسى .. حيث حلمت أن يجعل الله منه مخرجى ..

ولكن يبدو أننا نتبع سيرة - ابن الوليد - مات فى مرقده. وليس كما تمنى فى ساحة الوغى ..

ربما يشاء الله أن تكون سندبيس .. بحرى وقرارى

- مهلا .. كنا نتحدث عن الزرع والحرث ..

من أتى بذكر « الموت »

استمر - بحرى الثالث والأخير
صورة تتراءى دوما وأنا أخب فى البحر الهائج ..
وأنا من ذرية فلاحين معمرين ..
ربما اعتزل هناك وسط مزرعة صغيرة ..
لكن زمن التقاعد يأتى مبكرا فى أيامنا تلك ..
وأنت فى قمة نضجك يقولون إنه زمان العطب ..
- أبرح مركبك .. ضاق البحر عنك ..
وتبقى - سندبيس تعلن بعثى أو خلودى
منها بدايتى وفيها انتهائى ..
(تهدج صوته .. وعانقتنى نظراته المشبعة بالتوهج والحب ..)
قلت .. ولماذا لا تجلس ونتحدث
طالت وقفتك .. أم أن ذلك لفرط القوة والعافية
- أفرطت فى إحساس القوة .. وساقاى الآن لا تكادان تحملانى
آن لنا أن نستريح ..
حط على المقعدة .. قدمت يدى أسنده .. رحنا فى ابتسامة وهاجة ..
- لكن قولى لى يا حبيبتى لماذا نكتشف دائما أشياء رائعة قرب النهاية ؟
(ضحكت من أعماقى .. تباعد حديثنا عن منزلق الخطر .. عاودتنا البهجة وروح المرح ..)
- يكفى أننا عرفناها أخيرا ..

(« كان » قد مال برأسه إلى الوراء .. باسطا ذراعيه كأنما ليودع العالم . .)

ـ قل لى كـيف عـرفت أنهـا رائحـة الأرض هذه المرة ؟

سعدبيس .. بحرك الثالث الذى كان بانتظارك.

أمـــومة

o
o
o

السماء

رمادية متجهمة .. وأسطح البيوت مبتلة .. الجدران مثقوبة وصدى طلقات البنادق يندلع من بعيد - وفى القلب حريق - « ملاحة » تقعد على عتبة الدار .. ترضع ابنتها .. زهقت من جو الغرفه بالداخل . رأت أن تتنفس والطفلة « الهواء للصبى » وتمسك ببداية اليوم - وهو بعد صغير -

هكذا كانت تصور لها جدتها ميزة القيام عند البكور (زمان ياجدتى كان الصبح يأتى حثيثاً .. ينبثق الخيط الأبيض موشى بالنور .. فالق الإصباح يرسل البشر وتبرق بيارات الزيتون والبرتقال) هذه الأيام تتربص بنا جيوش الظلام .. يئدون النور وتزحف العتمة بالغداة والعشى.

توقفت البنت عن الرضاع .. ضمتها ملاحة .. حاولت أن تعيد الثدى إلى فمها .. دفنت فيه وجهها الصغير وعادت تنظر إليها من جديد..

وجدت نفسها تبتسم تهدهدها (نامى ياعيونى فى أمان)

عاتبت نفسها بسرعة : تنام فى أمان كيف ياملاحة .. خرفت يا امرأة (دوريات ورصاص .. رائحة البارود تنثر السقم والغثيان .. حملات الانتقام قائمة على قدم وساق)

تؤلمها ساقها عند القعود والقيام .. لكن أرادت أن تكف عن الاسترسال فى مثل هذا التفكير فقد بدأ اليوم على غير العادة بالابتسام.

لابد أن تكون قوية ومفيدة للثورة بأى حال من الأحوال.

عادت ترقب مداعبات الطفلة .. وفرحة العيون البريئة .

(لاتعطلينى يا ابنتى .. غيرت وأكلت .. ماذا تريدين منى .. اتركينى لحالى) حركت الصغيرة رجلها بمرح وصخب ..

شعرت ملاحة برغبة فى الاسترخاء .. والاستسلام لغفوة بحضن ابنتها . أمضت ليلة قلقة .. تنتفض كل لحظة تتصور أنهم يدهمون البيت ويقلبون الأركان.

شعور غامض أن شيئا ما سيحدث .. أمرا خطيراً تتوقعه وينذر بالاقتراب .

تتابعت الضربات الخفيفة كأيدى الصغيرة ورجليها ..

انتبهت إليها مرة أخرى .. تعود إلى الابتسام (جدتها كانت تغنى لها بصوت خفيض حتى تنام .. فى المخيم لم يعد أحد يغنى للأطفال .. والبنات مالعبوا بعروسة أبداً) .. احتضنتها بقوة

أكبرى يابنت بسرعة .. ماتفوتك لعبة الحجارة

من بعيد تتابعت طلقات الرصاص .. تفتحت شهيتها أكثر للتفكير والاستبشار.

(حجارة مباركة يلقيها أطفال لتحرير الأوطان-

ويتبعها دائماً قصف ورعد وانتقام)

صـغـار يربكون حـركـة القـوات .. يزلزلون خطى الخطائين العتاة .. لعبة شجاعة اخترعها الصغار .. عشقوها وتمرسوا عليها ..

- يبدو أن إليوم غير عادى يا ملاحة .. لم يتوقف صوت الطلقات ... تكاد تقترب .. ولا يلبث أن يحاصر الحي بأكمله ويجرى الاستفسار والعذاب ..

نامت الصغيرة تماماً .. وضعتها بجانبها على الأرض وقامت لتفرد طولها وتسوى منديل شعرها .. عندما همت أن تنحنى لتحمل البنت إلى الداخل انشقت الأرض فجأة عن فتى يلهث ويجرى وكأن فرقة كاملة من الشياطين تجد فى أثره

- خبئينى يا أمى

وفى لحظة كانت قد اندفعت به إلى الداخل بعد أن أغلقت الباب وراءها واجهتها العتمة لكنها تعرف الطريق جيداً إلى قبو التبن .

كان صدرها يصعد ويهبط فى جلبة ظاهرة .. ترتعد بجنون الغضب خبأته خلف صومعة الطين - صنعتها بنفسها .. لم تكمل استدارتها بعد ولا غلال هناك - حتى لو غرس الجندى سلاح بندقيته فى كومة التبن لما وجد شيئاً .

استدارت لتعود للصغيرة بالخارج .. عندما دوت الساحة بجلبة المركبة العسكرية وصوت الجنود والمدافع الرشاشة .

كمنت بجانب الفتى وأسنانها تصك وجسدها يرتعد .. قلبها يكاد يقفز من مكانه هلعاً على بنتها .. تنغرز العتمة

فى عينيها وسمعها فلا تكاد تميز شيئاً .. كان كل همها أن تكتم أنفاسها حتى لايكتشفوا مكان الفتى لو داهموا البيت.

فى تلك اللحظة كان الناس جميعاً قد استيقظوا داخل الدور والعيون كلها تحدق خلف ستر النوافذ وقضبانها يرقبون الموقف وينتظرون ماتسفر عنه هذه الهجمة الغاضبة .

أقدام الجنود تدب هنا وهناك تبحث فى كل الشقوق والأنحاء .. حركتهم تتسم بالغضب والاضطراب .

- هل انشقت الأرض وابتلعت هذا الشقى ..

قال كبيرهم : سأعثر عليه ولو أدى الأمر إلى هدم هذه البيوت على رؤوس أصحابها.

- هيا تحدث إليهم فى مكبر الصوت.حذرهم .. الويل لمن يخفيه أو يتستر عليه.

- لنتحرك ونبحث عنه فى الطرق المجاورة

- ربما أخطأنا الاتجاه ..

أخذ القائد يروح ويجىء ويفكر بإمعان ثم أشار لهم فجأة أن يتخذوا أماكنهم داخل العربة.

قبل أن تتحرك العربة لمح اللفافة البيضاء على عتبة ملاحة ..

أمر الجندى أن يعود بها .

والأقدام تقترب تنبهت ملاحة بشدة .. هزت رأسها وأمسكت ببندقية زوجها .. ستقتلهم قبل أن يصلوا إلى الفتى ..

فجأة تذكرت ابنتها فى الخارج .. هل غابت عن الوعى لحظات حتى نسيتها وركزت كل تفكيرها فى إنقاذ الفتى ..

عاد الجندى بالجسد الطرى : مولودة ياسيدى

- ربما ولدتها أمها من حرام وخلفتها وراءها .. هم جبناء فى الحب ..

قال الجندى هامساً : ليسوا كذلك فى الحرب

- ماذا قلت ياعسكرى

- لاشيء

أقصد ماذا سنفعل بالطفلة ياسيدى

- ارمها بالرصاص

- لكنها رضيعة

- وهى عربية أيضاً

اعدمها قبل أن تكبر وترجمنا بالحجارة .. ماذا تنتظر - يجب قتل الصئبان قبل أن يفقس قملاً - ملاحة لم تكن تدرى ماذا يجرى بالخارج .. ماتت كفها على البندقية .. والعيون المتطلعة خلف فتحات الجدران لم يكن يصلها الحوار واضحاً .. لكن حدة الموقف وعصبية الحركة وإشارة القائد .. وقبضة الجندى حول الصغيرة والسحنة الغاضبة جعلت السيدة فى البيت المواجه للعربة .. تندفع فجأة مولولة وصارخة:

- ماذا تفعل بابنتى .. كنت بطريقى للسوق عندما تذكرت الموقد المشتعل .. خشيت عليها .. خفت أن أجد ناراً ..

هجمت عليه بوحشية وقد تزحلقت عصبة رأسها .. بدت مخيفة ومشتعلة .. ومروعة هجمت وانتزعتها منه وفمها يرعد باللعنات.

ظل القائد واجماً .. محنقاً .. ثم أشار للجندى أن يقفز إلى العربة وراحوا يبحثون فى الأنحاء المجاورة .



- ١٠ -

حفــرة العمــل

o
o
o

حملت لى هذه النظره عبر النافذة الشىء الكثير .

أحسست بمتعة مذهلة وهزة مفاجئة - أسلاك أثيرية مست جسدى وجوانيتى . كم مر بى من عمر فى المدينة . القاهرة، دون أن يحتوينى المس اللطيف، ويرتد بصرى بهيجا مبصرا .

كيف تيبست حياتى وجفت هكذا - أعمل لآكل، لأقوم فى الصباح التالى لأعمل من جديد.

رئيس وردية . ملاحظ عمال . مراقب ربما .. كلها ألقاب أتحصن خلفها ، هى أقصى ما أمكننى الحصول عليه خلال عشرة أعوام كاملة . أقود فريقا من عمال ثلاثة. نصل جسور الوصل بين الناس، ونمد حبل الحديث بينهم. كأننا نؤدى دورا فى مسرحية دائرية مستمرة إلى الأبد.

حياتى تحددها هذه الدورات ونوبات العمل، من وإلى المصلحة. أجىء فى الصباح. أجد العمال الثلاث بانتظارى، وأمر التشغيل معدا لنا . يحددون الجهة، ويحملون معداتهم : أدوات حفر وردم، ودوائر الأسلاك والكابلات اللازمة .

لا يستغرق الأمر سوى بضع دقائق ، وتلفظنا المصلحة من جوفها. لايهم إذا كان الجو قائظا، أو البرد

صاعقا نصبح منفيين، ونعمل إلى آخر قطرة جهد لدينا، ونعود كفلول أسرى أضناهم المسير والتعب

لا شيء يحدث. لا جديد يقع. ولا يجيء إلينا أحد .

وتستمر نوبة العمل وحركة الأداء. منتهى الدقة، والتنظيم، والانسجام معا . حتى ترتيب العملية صار معروفا لديهم، متداخلا، ومنسقا .

وصلت هذا الصباح نشطا متحمسا . مجرد نظرة من جارتي أحدثت بي التغيير .

كيف لم ألحظها من قبل . لم أدر وجودها . أعادتني للحياة مرة أخرى، وأحسست أني أولد من جديد.

لاحظت غياب أحد عمالي. مُريض وأخذ إجازة لوجاء اليوم بالذات لشفي وتعافي.

- هيا بنا، أنا الذي أتعجل الخروج سريعا من المصلحة .

كانت الساحة التي يجري العمل بها على حافة المدينة تبدو بحرا ممتدا إلى ما لا نهاية. تذكرت أنه الربيع . أول مرة أذكر فصول السنة، أودورة الأيام، منذ غادرت قريتي. في القرية كان لي شأن آخر . عندما أعود من المدرسة آخذ بوصة الناي، وأنطلق إلى المزارع، إلى حافة الساقية المهجورة، والجميزة العتيقة. كانت عقيما لا تنزل الثمار، لكنها وارفة الظلال، وحانية وما إن يلثم طرف الناي، حتى يرتفع النغم رفيعا، عاليا، في شجن.

في الربيع كانت الحقول بحوراً متماوجة من سنابل القمح، تخللتها أيدي الفلاحين، وأطلقوا من قلبها عروق الذهب.

كأنني موجود وسط هذا العالم من جديد، وعيون جارتي يكمن فيها نفس الشوق والحزن، لعروس القرية. ساقوها للزواج من وحش ثرى، وحرموني قطرة الندى الوحيدة التي تنسكب في روحي. وتمتزج باشتياق دمي.

نسيت الرعشة الدافئة تسرى في بدني. وكان حرياً بالحقول، وبحور الخضرة، والذهب أن أسمع دقات النغم الآن، كأنها النغم القديم. وتطل الفرحة داخل الأحزان، فتحيل الكون واعدا.

فجأة توقف الحفر. ما الخبر ..، وقال كبيرهم إنه أنهى مهمته. حفر بالقدر المطلوب .. والآن يأتي دور أوسطهم الغائب لعمل الوصلة، ومد السلك في جوفها، وتقدم الآخر، وركن على يد شوكته الهائلة التي يردم بها.

وأسقط في يدي. كنت أظن الأمر يسيرا. يقومون بالعمل معا. ولم أعرف مثل هذا الفصل التعسفي، وأن لكل عمل محدد لا نحيد عنه ولا يخترق إلى بعده.

تبادلنا النظر

لم تقولوا من البداية. وكأنهم قرأوا أفكاره. ردوا عليه بنفس النظرات ـ كنت تراقبنا طوال الوقت. تم الأمر على يدك. أخذنا أمر الشغل، وخرجنا معك ـ

سأل نفسه. ماذا كنت أعمل طول الوقت.

أشدد عليهم. لا أسمح لهم بشرب الشاى إلا عند الانتهاء.

كبيرهم يركن إلى جدار زاوية، ويجلس ليلتقط

أنفاسه، وهو الذى يحفر دائما. يفتح منديله، ويأخذ فى قضم رغيفه.

كان يعزم على فى البداية. يسيل لعابى على الجبن القديم، ولكنى أحافظ على المسافة بيننا - لا أجعلهم يأخذون على. أعرفهم جيدا. لن يشتغلوا بعدها أبدا، سيضيع الوقت ولا ينجزون المهمة، وتضيع هيبتى، وربما فرصة العمل.

أظل واقفا طول الوقت. مزروعا فى الأرض .، قائما لا يصح أن أجلس بجانبهم. وسطى يؤلمنى، وأرتمى آخر النهار على سريرى ممددا.

أمى كانت تقول « إن العمل هوه اللى يختار صاحبه. ومن لا يصلح له يرفضه العمل . « ينطره » لبعيد .. »

تعودت الإخلاص فى العمل. واجب مقدس عبادة. لم أنسق وراء سوق العمل فى الخارج. أنا رئيس نفسى هنا. مراقب . ملاحظ لايهم. فرقة صغيرة للشغل، وأنا رئيسهم. من يضمن لى نفس المكانة فى البلاد البعيدة، والسماء الغريبة.

حقا أقف وحيدا فى العالم، قلقا، صامتا. لكن عندما يركن أحدهم للراحة بعد لحظة أنبهه. أحيانا بمجرد إشارة من يدى.

الرجل الكبير كان يتطلع إلى بدهشة. نظرته تخترق جوفى. تسخر من المظهر الذى اتخذه والدور الذى أمثله.

أحيانا يعابثنى دون كلمة واحدة يدوى صوته وهو يقول : لماذا تكذب علينا وعلى نفسك. أنت واحد منا تعال يا ابنى، واجلس معنا على الأرض. كل عيشا وجبنا.

أعرف. أنت على لحم بطنك من الصبح ولكن لافائدة معك.

استدرت. وجدت الرجل يسوى الأرض يدكها بقدمه وآلته. يبدو راضيا ..

انتهى الماكر من عمله فى وقت قياسى كدت أندفع إليه أقبله. أنهى حرج الموقف وصعوبة التصرف. سألته مازحا لماذا أنكر منذ البداية معرفته بسر التركيب والتوصيل وكانت المفاجأة.

قصمتنى كلماته. قال إنه لم ينكر، ولم يفعل شيئا مهمة زميله لا يعلم عنها شيئا. يعنى الحفرة مازالت فارغة - على ماذا يردم إذن.

أحسست ببرودة تزحف من جبينى إلى أخمص إصبعى جسدى مبلل بالعرق. الحفرة تسقط أمامى مثل هيكل عظمى منقرض. مهشم الفقرات. مقبرة مزيفة. لايرتفع منها تسبيح، ولا تقوم عليها صلاة ولا شهد عمل. لا يرقد فيها خط مشع ولاحرارة جارية.

تعود القافلة إلى المصلحة راضية - أنجزت يوم عمل. وتمت المهمة المخصصة لكل منهم - واحد حفر.. وواحد ردم -

وتغيب أوسطهم من عليه مهمة الوصل، والجمع، وإطلاق الحركة.

عدت مهموما مطرقا أجر قدمى مثل قائد فريق منهزم ..

فى اليوم الوحيد الذى ابتسمت لى فيه عيون ولاح بريق من أمل.

صـــلاة

○
○
○

صحوت بين حنين واشتياق
مع دفقه النور الأولى وتنفس صبح جديد.
أسرى بى إلى سماوات وبحور ذات بهجة
تهدهدنى أمنة النعاس لاتزال ولذة النوم العميق.
دق جرس قريب
لم أخف أو أضطرب .. لم أسقط من حالق فى نهاية حلم غريب
أو يلقى به على حافة اليقظة بشدة ..
لاتعمل بمخيلتى آثار خوف ..
سكينة وهدوء .. أشعر أنى جزء من نفس العالم .
يشتد الرنين
نفسى مطمئنة .. متاحة للنور .. جو شفيف .. رائحة نقاء وبراءة.
- أوان ترتفع فيه الذات ويسمو الجسد اللطيف
تلح آلة الوصل والتعذيب
غائبة عنا الأن لام والمحن - لا خصام ولا فتور - هذا خلق جديد..
يلح الرنين ويشتعل
أعنف ما يكون وأنا أبعد ما أكون -

صياح متصل يخترق حاجز الصمت - ينادى هل من مجيب؟

أتناوله ليكف عنى .. صوت أعرفه .. صديقتى ..

أرتد فى لمح البصر - ماذا جرى ؟ - فى لحظة أدرك مدى حبى لها ..

على استعداد لأفعل أى شىء من أجلها - مواجهة أى موقف هى فيه . .

صوتها مثل الندى .. ينسال كماء منهمر

- لاشىء هناك

لا أريد اعتذارا أو مقدمات

كل ما فى الأمر أردت أن أعبر لك عن اعزازى وامتنانى ..

شكرا لصداقة تمنحنى إحساسا من الفهم والود .. نعم قد تمر أوقات نلتقى فيها كثيرا - لكنى أعرف أنك هناك تعرفين وتهتمين .. وأنا باتجاهك دائما - معك أركب زورق الحقيقة .. أركن إلى مرفأ جميل - أجد نفسى الحقيقية .. تعجبنى نظرتك للأمور - وجهة نظرك صحيحة فى الغالب - متعه أن يكون الإنسان مكتشفا ومعروفا على هذا النحو ..

(تشعر دائما أنى أدرك ماتفكر فيه .. ارتفع حوارها الداخلى يوما أمامى .. أطلقت دوامة جوفية .. عرفت ما تعانيه - لم أعلق لم أعقب - كنا فى ندوة سياسية .. كلام

فوقه كلام .. لا أحد يذكر الحقيقة ـ تململت .. تنهدت ـ ألقت بمفارقة حسية ـ أطلقت نداء خفيا « الرجال يهجرهم الشوق والحنين ـ تجعلهم السياسة خاملين » قامت وانصرفت في هدوء ..

في حالة من الوجد تعود ..

ـ التسابيح تحيط بي ـ البيت يعلو ويموج ـ أحس بحاجتي إلى الصلاة أصلي بطريقتي الخاصة ـ أحادث من أحبهم ـ من يعني وجودهم أمنا ودفئا ..

أصلي الآن صديقتي.

رجل في الوسط

○
○
○

عندما دخلت إلى مكتب صديقى المخرج فى الاستديو لم يكن حاضرا .

أمام النافذة كان يقف الممثل المشهور متأملا الشجرة العريقة وغصونها المتعانقة .

(المنظر الجانبى لوجهه يجعل أى إنسان يتمنى لو يكون رساما أو مصورا) وهو ما حدث بالفعل منذ البداية أحبته الكاميرا وتآلف معها وصار قريبا من قلب الناس وحبهم ..

وجه إنسانى محب يحمل بين قسماته ودا ودفئا .. وتجتذب صورته المعجبين والرسامين والمصورين فى كل أنحاء العالم.

(وضعوا صورته فوق إعلانات التدخين ومهرجانات المشهورين .. وبيوت الأناقه وعطور النساء .. وصهوة الطائرات والمباريات والجياد الجامحة)

استدار إلى وتوهج وجهه بابتسامة معرفة سابقة (رغم زحف الخيوط الفضية على شعره المجعد مازال سحره قائما ويحتويك بابتسامة برئية - مازالت بريئة رغم سنوات الغربة والمغامرة والتصوير والعمل .

(أشفقت عليه يوما عندما أسند إليه دور مهول.. وأداه بقوة .. وأبان عن حياة بطله الداخلية وكأنها طبيعة ثانيه له .

قلت مسكين ماذا سيصنع بحياته بعدها - لا يوجد دور أفضل من ذلك وسيظل فى أسره دائما)

أقبل محييا - من لحظه كنت أفكر بقصتك

- وصورتك منشورة بأعلى الصفحة مع خبر فيلمك الجديد.

تجاوز الملاحظه باسما ..

انحنى قليلا وهو يشير بيده إلى الكرسى الوثير بالحجرة فى مواجهتى (يكمل الحديث كأنه بوقفته أمام النافذة كان يمضى لحظات الترقب المثيرة لهذا اللقاء بعد أن جمعت صحيفة الصباح بيننا)

قال وكأننا نكمل حديثا سابقا : " حاضرة البحر " قصتك حملتنى إلى مدينتى الجميلة التى درست بها وضمنى بحرها ووسعت أحلامى

أحاط بى الإحساس الشعرى بالعالم.

- كان يجب أن تكون شاعرا

اقترب بمقعده أكثر : أتعرفين كنت أتمنى أن أكون بحارا .. وأجوب العالم.

ابتسمت : - عملك بالسينما أتاح كل الأدوار والبطولة والمهن وجدتك ربانا فى أحد أفلامك.

- القرابه الداخلية ضرورية لتجسيد سمات البطل

- وكنت متشردا

- المتشرد الجميل من منا لم يحلم به ..

كالمهرج .. يقول ويفعل ما يشاء وعلى طبيعته وربما أيقظ فىّ نزعات كامنه.

قلت بابتهاج حقيقى : " المتشرد الجميل " عنوان مثير لقصه قادمة أقاوم بها كل السدود والقيود الموضوعة.

أقبل باهتمام حقيقى : القصة القصيرة والفيلم ينتميان إلى نوع فنى واحد.

لغة الصورة واللقطة الموحية.

هللت بطبيعية ثم كأنى أؤدى دور من يقول حكمة : ماهذا النضج والرؤية النقدية الواعية ؟

اقترب برأسه كأنما يسر إلى بسر خاص به :

- تعلمت كثيرا فى فترات الإعداد والفهم للشخصيات التى أقوم بها - فترات تجديد للروح .. واكتشاف للنفس وإيجاد سمات مشتركة .. لابد أن يكون للفنان رؤية خاصة للعالم.

قلت مندفعـــة : الجميل حقا أنك تحتفظ بحماسك رغم بعاد طويل عن العمل .

رد بهدوء وثقة : حتى فى فترات التوقف عن التصوير والأداء لايمكن أن يسمح الممثل لنفسه بالاسترخاء

(جميل هذا الثبات والإدراك - والرؤية المحيطة بالعالم والوعى بإمكانياته ورسالته)

قلت بصوت محايد شأن من يقرر حقيقة - ولأنى ندمت على الإشارة لبقائه فترة طويلة دون عمل - وربما لأخفى رنة الدفء المشتعل داخلى

- ربما من أجل هذا تؤدى أدوارك بمهارة وطبيعية

رغم الاختلاف الشديد بينها .

وهو أيضا السبب فى شهرتك بسرعة خاطفه.

أعفانى من تقرير النجاح - وأجاب بصوت حاول هو الآخر أن يجعله محايدا .

- السينما فن ممتع .. آخذها بجد عمل ورسالة .

- كيف توفق بين شخصيات أبطالك وشخصيتك؟

رجع إلى الخلف .. أسند ظهره على المقعد - وبطريقة مميزه فى الدعابه والمرح :

- أجد شيئا مشتركا بينى وبينهم

صمت قليلا .- أو أكتشف بهم جديدا فى نفسى

(تذكرته وهو يمثل شخصيه القائد الكبير - لايمكن أن أنسى صورته أبدا - والبحار المغامر .. والأمير المحب ..الثائر المعذب والموظف الصغير .. والمتشرد الجميل -

الرجوله الكاملة " كما تقول الاعلانات والملصقات والصحف)

- لماذا جعلته على مدار حياتى دائما .. أتبع أخباره وأخشى سقوطه أو ترنحه؟-

شريط حياته أخذ يدور بسرعة داخلى - لحظة اكتشافه وهو يتقدم على استحياء أمام الكاميرا ..

قلت يوما لصديقى المخرج : يوجد شىء مثير وغامض فى نظرة هذا الفتى (رنت كلمة " فتى " كأعلى ما تكون .. وما فيها أكبره فى السن طبعا عمرى أقيسه بعدد القصص واللحظات الحاسمة .. بحر من الكلمات

والحكايات تفصلنى عنه ..)

حضرت بدايته إذن - لايمكن أن نفلت من نظرة الحزن العميق والشجن فى عينيه حتى وهو يبتسم -

أحسست به يتأملنى ويعجب من شرودى (جانب وجهه وقوه ملامحه .. وتاج الشعر الأبيض المجعد يجعل كل من يراه يتمنى أن يكون رساما ماهرا ومصورا بارعا)

هل كنا نتحدث عن الأداء أم القص الفنى أم اللحظة المتقدة بيننا (القصه والفيلم يتبعان اللقطة والصورة وتجمع أشعة الحقيقة متوهجة)

أفقت على عاصفة من الأصوات والحركة والضجيج - جاء المخرج يقود مظاهرة .. كلمات ترحيب وصيحات إعجاب وكاميرات تبرق وعيون وميكروفونات - عمال قهوة وإضاءة وممثله عارية ناشئة.

ضجت الغرفة بالزحام والكلام والصخب .. وددت لو أقوم بدور فتاة الاسكريبت أو عامل الكلاكيت .. أنبه وأخبط بالقلم على الأوراق أو أغلق اللوحة الخشبية .. هدوء من فضلكم .. صمتا .. نستعد للقطة التالية ..

(ولكن أى صورة هنا يمكن أن تلمس أعماقه التى لمستها .. أتاحها لى ووصلت إلى عمقها)

- يقول القصه والفيلم ينتميان إلى فن واحد .. طريقه السرد موحدة - القصة فى عمق تجليها فى اقتناص اللحظة النادرة -

بصعوبة وصلت إلى مكانه .. همست

- هل يمكن أن أدعوك لكوب شاى بمنزلى

قال وهو يفلت من الحصار إلى الخارج :

ـ ظننت أنك لن تطلبى أبدا

* * *

كان إبريق الشاى يغنى وأنا أقوم بإعداد الحفل الصغير لإعداد « مشروب الأصدقاء » كما أسميه دائما .

قام ليحمل عنى الصينية .. أثنى على طاقم الشاى الفخار.

ـ أحب هذه الصناعة المحلية .. وأقدم أدوات الفن العريق ..

وكأننى أردد صلاتى ونشيد عشقى ـ أوانى وقدور محملة بالخير والزاد وأسباب الحياة من طمى النيل وشريان الحياة ولمسات أيدى الفنانين البسطاء. (أرضى وكيانى ومادة خلقى الأول وطبيعتى المصرية وجذورى وامتدادى)

ـ بيتك ملىء بتحف الفخار الرائعة .. هذه القنينة جميلة وحميمة ـ والمزهرية .. وزير الماء .. وأصص الزرع .. مازالت لمسات الصانع تزخرف فوهتها الواسعة .. وتشكل حركة التربة داخلها والهواء المحيط بها .

يتلفت حوله انبهار (رأيت فى الصحف حديثا معه فى جانب من قصره على الشاطىء.

وصورة لحمامه التحفه ـ إنه صالون حقا كما يقول الإعلان) ركنى الصغير يبهره بصدق .. ويجعل أشعه عينيه الخضراء لا تقاوم

أشار إلى الزروع ـ نضرة وزاهية تحيط بروس كتبك، فروع محبة وصداقه تحيط بأبطال خزانتك

لابد أن لك أصابع خضراء - كما
يقولون – لمستك الحانية تسرى
بالنماء بين الأوراق والغصون.

(كأنه يتأمل جوانيتى .. ويغوص غير بعيد عنى)

مذاق الشاى بدا رائعا .. طلب قطعة سكر واحدة ..

- أشرب الشاى بدون سكر .. نويت بفنجانى مثله قطعة واحدة شعرت بحاجتى لمزيد من الطاقة .. لعمر جديد ربما.

* * *

صوت طرقات متعجلة .. اندفعت ابنتى من الباب

توقفت وقبلتنى مسرعة .. همست : هل حقا الفنان المشهور فى بيتنا وضعت كتبها والمراجع التى تحملها واندفقت من الباب ..

نهض محييا .. ووقفت بينهما صامته .. تلقاها بفرحة حقيقية .. تردد أن يحتضنها ويقبلها .. اكتفى بأن ربت على يدها ومسح على شعرها ..

جلست مبتهجة وصامته ..

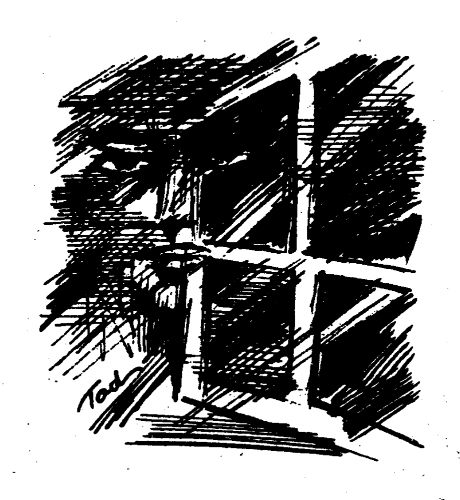
حاولنا أن نعود لحوارنا .. كان كل شىء قد هدأ فى الحجرة واستقر يمارس صلاته الصامتة ..

قال كلاما كثيرا .. من قبيل أنه سيأتى دائما .. وقد عرف للشاى مذاقا آخر .. كان سيطلب منى أن أهديه طاقما من الفخار .. ولكن تبقى الروح وسحر المكان .. وطبعا المكان بأهله .. سيحتفظ بحقه بكوب شاى ممتع هكذا كلما يجىء .. وعلى وعد باللقاء .. قام وانصرف ..

عـدت الـــى مـقـعــدى .. بهـجـة خـضـراء لا تزال تعبق المكان ..

مددت ساقاى .. بعد قليل أنهض لأكتب القصة .. تنهدت بعمق .. واتتنى فكرة مـرحة (لو أنه أكبـر قليـلا) اندفعت ابنتى إلى الحجرة صاخبة بعد أن ودعته - ماذا تقولين يا أمى .. وأخذت .. هل كان مسموعا حوارى الداخلى ؟ وقبل أن أفيق من الدهشه .. ارتمت على صدرى تقبلنى وتهزنى تقول بصوت مرح :

" لو أنه أصغر قليلا يا أمى "



- ١٣ -

مجنـــونـــة

o
o
o

نبهتنى شجرة الخوخ أن الربيع يعود ..

منذ أيام كانت جرداء .. ترتفع أذرعها إلى السماء .. داخلنى شعور أنها ميتة .. أبدا لن تورق وتتوهج أغصانها باللون الوردى .. ويتدلى منها الخوخ الشهى.

- عاد الربيع ولم يعد -

الشجرة صديقتى .. أرى نفسى فيها .. تحتضن نافذتى وجوانيتى .. أرى أدق برعم فيها .. أرقب مجىء الربيع من خلالها .

عندما يهب النور كل صباح أنهض لأحييها .. يكون موعدى .. أحدثها .. أغنى لها أقدم أمامها رقصتى المقدسة.

تنعشنى لحظة المخاض بجذعها .. تهتز وتربو .. ويولد الزهر بلون البهجة والفرح . يلفنا صمت كثيف هذه الأيام .. تبدو بعيدة عنى .. وأبوء بحمل ثقيل وغضب . من الفنان الذى يرسم شجرة كلما أراد تصوير امرأة!

كل امرأة شجرة .. محلولة الشعر تنثره على الماء .. وست الحسن والجمال تنزلق بجيدها إلى النهر وتستحى أن يراها أحد .. الطويلة الشامخة .. والنحيلة الفارغة .. والعاقر المسكينة تقف ذاهلة .. مجنونة تنشب مئات الأذرع الغاضبة ..

من بين الغصون المخضبة بلون الربيع رأيتها .. مجنونة-

شجرة .. أقصد امرأة ..

محلولة الشعر .. تلتف بملاءة سوداء .. تكاد تنزلق من على كتفها .. تتشبث بها فى محاولة يائسة .. تصنع شيئا عجيبا حقا وهى تقترب ..

تتقدم .. خطوتين إلى أمام .. تتوقف وتلطم خديها .. عيونها محدقة فى فراغ .. تنصت لحديث صامت .. تهوى بأكفها على وجهها وتمسك بالملاءة المحيطة بها.

إلى أين وما خطبها ؟ ..

الأفق دوامات فاغرة افواها .. والقروش السريعة تمرق من حولها .. لعنة الملاح التائه حلت بها .. لامرسى ولا مرفأ أو فنار يلتمع أمامها ..

لم أصدق لحظه ما أرى ..

ملت حتى كدت أسقط .. ماذا حدث .. من تنعى ولمن تنتحب استدار الرصيف واختفت معه ..

بعض المارة حملق فى وجهها .. النفت أحدهم خلفها .. بائع الناى على الناصية أخذ .. ماتت أنته المديدة فى ثقب بوصته .. ظل يحدق فى إثرها .. خرّ قاعدا على حجر الرصيف ..

شعور غريب يزحف داخلى

تداخلت الألوان الوردية والسوداء .. تحولت إلى شباك متقاطعة .. حبال تلتف بعقد متينه .. شعور الأسى يزحف بعد ذروة النشوة .. ومضة يشوبها قلق تداعيات غريبة مصاحبة للدهشة ..

أود لو ألقى بنفسى فوق الغصون المشرعة .. أعانق لذة الجرح والنزف الخارجى .. فقط لو أجرب ما حدث أمام ناظرى ..

أخرج على الطريق - المرأة صديقتى .. أسير مثلها خطوتين وأتوقف وأهوى على صدغى .. محلولة الشعر ولا أبالى

أتوق لتلك المشية المغيبة .. تتجاوز الإدراك والوعى .. أتخلص من أثقالى عباءتى .. فى نشوة تهيم على وجهها ..

آهات حزينه تعلو بها .. تعانق راحة الندب الجنائزى .. ذروة الذوبان فى الجرح الخارجى. الدوران فى حلقات الذكر والانطلاق من الأسر والأثقال ..

يقولون مجنونه .. وهو على هين

مجنونه .. أكسر حاجز الصمت وأرفع صمام الاحتراق الداخلى .. تتصاعد أبخرة غضبى على الطريق العام.

لكنى أحمل همى .. أينما أكون أحمله معى .. تهدنى أوجاع المخاض ولا يولد أبدا حامل به إلى الأبد ..

الشجرة تنفض سقمها .. والمرأة تجهض حزنها

تسقطه فوق الشارع - وسط العراء - أفرغت مافى جوفها .. هزنى شموخها .. كشجرة سامقة .. كان رأسها عاليا .. نعم تذكرت .. محلولة الشعر .. مرفوعة الرأس .. طبعت صورتها على عينى ..

ذات كبرياء .. فوق كل العابرين والمارين .. والمحنية رءوسهم

شجرة الخوخ تروعنى .. صلبان فروعها تقطر دما . تسد

عليّ الأفق .. تدعونى إلى اشتباك .. لعبه خطرة أتقلّب بين وخز إبرها ..

عازف الناى هل ينتبه أم يظل مطرقا

عابر الطريق تحين منه التفاتة إلى مجنونة تنتزع الراحة من براثن الألم .. تلد سقطا جاء به الربيع مبكرا .

أتشبث بحافة النافذة .. أحول بينى والسقوط

تنحدر قطرات تبلل يدى. تفتحت شفاه الزهر تلتقط دموع السماء صحـا اللـون الوردى .. غسلت الدموع نفسى ..

نبهتنى شجرة الخوخ أن الربيع يعود ..

رغم كل شىء يعود الربيع دائما .



الخبـــــازة

○
○
○

يوم ليس كمثل بقية الأيام.

لابد أنهم يعدون حفلا صغيرا .. أو مفاجأة .

يتحقق الحلم .. ينفذ المشروع .. تراه أمامها فى كل مكان «مستديرا كوجه القمر .. لامعا مستبشرا» .

لابد أنهم يعدون الساحة الآن - ويأتى رئيس القسم .. والسيد العميد .. ومدير مركز الأبحاث .. العلماء والكتاب - ومن يدرى ربما العديد من الوزراء.

على غير العادة تطيل النظر فى المرآة « منذ زمن طويل لم تتوقف أو تتمهل أمام مرآتها - جاءت من أجل مهمة كبيرة » تلمح ذات النظرة الذهبية الخضراء - مثل حقل القمح « يقول لها أعرفك من بريق عينيك .. أقرأ ما يعتمل بصدرك من هذا الشعاع الأخاذ - لابد أنك اكتشفت فكرة جديدة »

مرت الأيام .. نوت الكلمات .. خبا الوميض والوهج - تكمن فى العيون نظرة حنين واستسلام.

لا .. لم تعرف الاستسلام فى حياتها - من الأفضل أن نقول « بها تحفز صامت » .. رغم كل شىء لم تتكسر أبداً .. لاييأس من لديه عمل هام مثلها .. تعتصم بالصبر الجميل .. تجاهد على شتى المستويات - فى الداخل والخارج - تعمل أما وأبا - وقائمة بالأعمال .. تسير دفة العائلة ودائرة العمل .

تثق بنفسـها .. بمواهبـها .. وتفكيـرها .. تؤمن بقدرتها على تحقيق ما تريد - ولو على المدى البعيد « تحيا من أجل مهمة فائقة »

تتأمل هيئتها داخل التايير الرمادى - طالت صحبتها له .. لا تغيره كثيرا .. أصبح مثل الزى المدرسى - ببساطة جسدها يستريح فيه « من يذكر الجسد فى لحظات كهذه »

مازال القوام ممشوقا « مثلك لا يكبر أبداً .. تبدين أنيقة لو لبست « خيشاً » - كم كان محبا مرحا ودعويا دائما » تعيش من بعده كراهبة - حتى اللقب يليق بها .. ينتمى إليها راهبة العلم .. خذلها ومات .. فى صدر الشباب مضى .. استغفر الله العظيم .. لكل نفس أجلها .. لكن عموما الرجال لا يحتملون .. لا يصبرون .

البيت والمعمل هما كل مالها .. دنياها وعالمها الداخلى « النخالة تتحول بين يديها شعرا ووجدا » .

تختار عصبة رأسها بعناية .. الانسجام بين الألوان والتوافق .. الاهتمام جدير باليوم الموعود .. الطرحة من الأخضر الشفيف .. تعكس لون عينيها .. تضفى دفئا على الرمادى الباهت . لابد تبدو على أجمل صورة .. اليوم بالذات ..

يوم ممتد إلى الغد الجميل - تحقق به فتحا .. تجعل به فرجا - لا تريد جائزة أو لقبا .. لا قصيدة مدح أو منشور ترحيب - إن هى إلا كلمة يحييها - تمت الموافقة .. يجرى دولاب العمل ويبدأ التشغيل ..

سرى الدفء إلى كيانها - كأنما تحقق بالفعل ما تفكر فيه - بدا وجهها محاطا بهالة من نور .. لا تدرى متى

تحجبت بالضبط .. لكن حقيقة الأمر أنها نسيت طرحة الصلاة على رأسها .. وذهبت بها إلى العمل .. هللوا جميعا - وجهك منير - من يومها لم تخلعها أبداً .. تخجل أن تقول لم يكن لديها الوقت لتهتم بشعرها .. تعقصه دائما .. تلملمه بإهمال .. بالليل فقط تفك أسره . ينزلق مع أحلامها على الوسادة .. تحتضن وجهها .. تتذكر به دفء الليالى البعيدة .

دورة اليوم لديها تبدأ مبكرة .. تهب واقفة .. تدور مثل النحلة ... تعد الإفطار .. توقظ الأولاد .. توصلهم إلى المدارس .. ثم تذهب إلى عملها.

بنتان .. تقول لزوجها - ندخل بهما الجنة - سبقها إلى الجنة أمامها طريق مضنى حتى تصل إليه .. المهم أنها حياة طيبة مهما كان فيها من تعب وألم .. معيشة طيبة تسعى فيها لهدف كبير .. حتى لتعجب كيف يعيش من لا يهتمون .. من لا يخرجون عن دائرة الذات .. كيف يحتملون.

تأملت اللافتة العريضة التى تتصدر واجهة المبنى .. دلفت إلى الداخل وسعتها الأرض مترامية الأطراف .. كأنما تصل إلى نهاية البلاد - حقول للتجارب .. معامل ومبان .. طرقات وحارات ..

الأشجار والنبات تقف مصفوفة .. متسقة وعلى وضع استعداد .. مشرعة رءوسها إلى السماء .. زروع غضة تتمايل، تتمايل مع الهواء كأنها الصغيرات فى ساحة الألعاب .. تشع نضارة وتألقا .. مدينة جديدة. نظيفة .. ساحرة .. وجهتها الصحة والعافية .. تتصل بأسباب المستقبل. وتمتد لجسور الرخاء .

تسير زمنا حتى تصل إلى مكتبها .. الطرقة إليوم من أجل ما عبرت فى حياتها - لماذا كانت حياتها جريا ؟ فيم كانت تلهث!

ربما العيب ليس فيها .. إنه إيقاع العصر .. الكل يلهث ويتسابق . لم تفلت الأيام من قبضتها تماما .. ولاراحت عبثا .. مازالت لديها القدرة على العطاء. وعلى الانتظار .. لابد أنهم اليوم يصلون إلى قرار .. تحسم المسائل تماما .. تئن السيارة وتتلوى حتى تصل أمام باب مكتبها - ليس مكتبا بالضبط - لكنه « المخبز » هى راضية تماما عن وضعها وعملها -

نعم .. صاحبة أبحاث رائدة فى الخبز .. ما توصلت إليه يقول وداعا للأنيميا والأمية الغذائية .. الدول مشكلتها الطعام .. الشعوب والأفراد يخشون المجاعة والديون والفقر . بطون البشر تضمر وتلتزق ..

جدتها تقول دائما « الذل يكمن فى البطون ، أنا أربط على بطنى حجرا ولا أذل وأذوق الهوان ».

هى تعمل من أجل ألا يهون الناس على أنفسهم . هدفها تحسين رغيف العيش .. رفع كفاءته وقيمته الأساسية . من أجل هذا حصلت على درجة الدكتوراة .. تريد لتحدث ثورة غذائية وتحرر أفواه الناس.

« الرغيف مسمار البطن » كما تقول الحكمة الشعبية . المصرى لا يحس بالشبع إذا لم يأكل خبزا، فى القرية يطبخون الأرز ليغمسوه بالعيش.

أى طعام فى الدنيا اسمه « غموس » أما الغذاء الأساسى فهو« العيش » (ربما ألقوا عليه الاسم من

المعيشة .. والرغبة فى الإبقاء على الحياة)، عندما تقدمت لرئيس القسم بتجاربها الأولى .. أغلق عينيه وأخذ نفسا طويلا من الرائحة الشهية .. ثم أطبق رغيفا وأخذ يقضمه بلذة ..

لما رأى دهشتها . قال : لا تنسى أنى فلاح .. لو أحصيت عدد الأرغفة التى أكلتها فى حياتى لما وسعنى حقل كبير . (زوجها أيضا كانت له طريقة فى طحن العيش الجاف فى فمه تثير شهية من يسمعه. وتبدو الحياة بسيطة وممكنة .. تكفينا كسرة خبز .. والرضا)

لم تكن الدنيا تسعها عندما تم تعيينها بالمركز .. لا حد لطموحها وأحلامها .. تريد تحسين وجه الرغيف (الذى ترى فيه وجه الوطن ودورة الحب والانتماء) الناس تحلف به الإيمان. ويصدقون فى الحلف .. يرتبطون بأكله معا .. يتوقعون أسوأ مصير لمن يخون « الخبز والملح » - ولمن يأكل خبزنا ويعمل ضدنا -

دائرة من العجين المخبوز يصون العهد ويحفظ الود ويقيم الصداقة الجملة الأساسية فى حركة الابحاث لديها هى إضافة مكونات هامة لهذا الرغيف .. حديد . كالسيوم وفيتامينات ..

تجعل من يأكله يشتد ويقوى .. ويحسن التدبر والتفكير .. فكرت أيضاً فى إضافة دقيق الموز .. تكسبه رائحة وطعما مسكرا .. أين اختفت أصابع الموز البلدى الجميل .. يستوردونه الآن بلا طعم ولا رائحة .. قال فقيه القرية عنه « كالتمر أدركته رطوبة القلقاس »

فكرت أيضا فى تجفيف بعض الخضروات ..

بالمقدونس .. والثوم .

- أكلت فى أيام بعثتها عيشا بالثوم .. صحيا ومغذيا .

اتجهت أبحاثها أخيراً إلى المانجو .. محصول وفير هذه الأعوام - مع ذلك لم ينخفض السعر - تأخذ مايلزمهـا من حقول التجـارب .. تـضيف تلك النكهة العبقة إلـى الرغيف .. وتشـع الرائحة من معدة الأطفال ..

تركت فى الخارج مثالب وسلبيات كثيرة .. كل شيء هنا نظيف .. ينمو يتطور ويتغير طعم الحياة .. الحقول كأنها مركز الكون .. المعامل نجمة ميناء .. الابحاث طوق نجاة .. منطقة صحية لا ينفذ إليها أى تلوث أو أوبئة .. مكتبها فى مواجهة الفرن .. يشيع فى كيانها الدفء. تضع الخبز المتبقى لتحمصه .. منه تعمل « البقسماط » يضاف لبعض الأطعمة .. يزيد من قيمتها الغذائية والجمالية ..

ربما هو النوع الوحيد الذى نجحت فى إنتاجه على المستوى العام وتزود به التعاونيات المحيطة ..

رائحة الخبز مثيرة وشهية، لا يملك الفقير سوى معدة واحدة .. ولكى يشبع يملأها خبزا . حتى الزائر الأجنبى .. حمل معه بعض الأرغفة لزوجته فى العاصمة البعيدة لتذوق رغيف مصر ..

- يبدو أن من يأكل خبزها .. كمن شرب من نيلها يحبها ويشتاق أن يعود ..

قامت منتشية .. تحضر رواتب العيش المعتادة .. كثرت الطلبات أسماء كثيرة تضاف إلى قائمة الانتظار .. تضع الأرغفة بنفسها داخل الأكياس الشفافة .. تعامل

الجميع معاملة واحدة .. يقوم العامل بالتوزيع .. يبدو متعجلا للانتهاء من المهمة ـ هل يعد أحد لاحتفال .. يجىء أوان المفاجأة ..

تفتح الدرج .. لاشىء به سوى أوراق البحث الجديد .. تسلمه اليوم عندما يبدأ الحفل .. داخله المفاجأة .. لتعمم تجربة « الرغيف الجميل » ـ تعلو الفرحة ..

ـ خبز ومانجو للجميع ـ

هل يمكن أن يكون آخر يوم لها فى العمل

- ١٥ -

هـــواية قديمـــة

ο
ο
ο

لا أحب زيارة الطبيب ..

هذه المرة أكاد أطير من الفرح ..

موعدى مع صديق .. نصحنى الجميع بالذهاب إليه - أبرع جراح فى العيون.

صديقى القديم فى قاعات الدرس .. وبطون الكتب .. وجوف المعتقلات المرعبة .. منذ البداية وهو يهوى العيون فى كل شىء .. يفحصها يدقق فيها النظر .. هواية غريبة كان يأخذ رأس الدجاج المذبوح ليعرف كيف تعمل العين وما يمسكها من الداخل وما يحيط بها.

يعرف الطازج من السمك من عيونه اللامعة.

يقول العيون لا تكذب أبداً .. يطل منها ما بالداخل دائما.

عندما أحببنا بنت الجيران معا قال - إنه أولى بها .. شدته عيونها .. نصحنى بالاكتفاء بقول الشعر وستكون قصيدته الحية الدائمة.

الصداقة قدر بيننا .. نشترك بأشياء كثيرة - حلمنا بالمستقبل معا .. نشتغل بعلاج أمراض الإنسانية .. بطهارة عيونها (انعكاس البصر فى البصيرة هو همنا).

- جمعتنا الدراسة والسياسة وأشواق الأيام الجميلة القادمة - أكون كاتبا ويكون طبيبا معالجا - عندما اتصلت به لأحدد موعداً عرفنى من صوتى ..

وهو الآن بعيادته ينتظر .. تتدفق الصور والذكريات متدافعة .. أرانى معه فى المظاهرات فى سن الخامسة عشرة .. يحملنى على كتفه وانا أصعد النشيد والهتاف .. يشتد حماسه ويلوح بى كعلم مرتجف .. تتدلى خصلة الشعر الشقراء فوق جبهتى .. من خلالها لا تفوتنى رؤية فرق الجند القادمة .. أسرع بالنزول وإطلاق ساقى للريح .. وأختفى « يقول زملائى صارت علامة مميزة .. عندما تختفى خصلة الشعر الشقراء من فوق المظاهرة نسرع بالجرى .. هى إشارة الفرار المتفق عليها - دون اتفاق مسبق يتفرق الجميع ما عداه .. ظننته متعبا حتى لا يستطيع الجرى مثلنا .. حتى عرفت - أنه لا يحب الفرار أو الانسحاب من المواجهة. « وظل هذا الموقف ماثلا أمامى وفى ذاكرتى دائما .. استعنت به للثبات فى أيام عصيبة مزلزلة ».

فى المعتقل أجده بجانبى - يأخذوننا جملة - تضعنا الصداقة فى قائمة واحدة .. حتى الحارس الذى يشارك بضربنا فى الصباح .. يعالج له عينيه فى المساء ويسعف ناظريه عند الطلب .

ماذا فعلت بنا الحياة .. كيف تفرقنا .. ومضى وقت لم أعرف عنه شيئا حتى ظننته مهاجرا .

كيف لم يتصل .. على الأقل عنوانى معروف من الجريدة التى أعمل بها .

كان المساء باردا ومظلما .. وضوء العربات فى مواجهتى يزعج عينى ومع ذلك كنت متألقا .. أردد لنفسى أغنية صاخبة .. نسيت آلامى وضعف بصرى ومتاعبى .. بل وأرى الأشياء كلها بوضوح وفرح.

ركنت سيارتى بعيدا .. ومشيت أصفر وأتمايل .. لا أهتم بمن يدهش لتصرفى - كان الموعد متأخرا ليخلو لى تماما -

بعد العناق والأشواق أزحت كومة الأوراق والفحوص السابقة جانبا . دع كل شىء ينتظر فقط قل لــى .. كيف تعيش .. ماذا تقرأ .. ماذا تصنع بحياتك الآن،

ابتسم بهدوء « يبدو وقورا متأنيا » عملى يستولى على وقتى تماما .. أدرت ظهرى للسياسة .. لم أعد أفكر أو أقرأ ..

-لا أصدق.

صدق .. ماذا فعلنا بكل أعوامنا السابقة .

كان وهما ما عشنا من أجله .. حلمنا أو تعذبنا به .

تصاعدت عبارته المحفوظة بقلبى والذاكرة « لايحب الفرار .. الهرب من المواجهة » . أندهش وأنا أتابع أحياناً كلماتى الساخنة - مازلت كما أنت متحمسا .. مشتعلاً لا تريد الانسحاب .

هبط قلبى إلى قدمى .. أحسست بجسدى يرتجف .. زغللة فى عينى وضيق بالنفس .. - أتعرف .. اخترعت لنفسى هواية جميلة . معروفة لكنى اكتشفتها مؤخراً .. كل ما يحتاجه الإنسان هواية جديدة تملأ عليه حياته ..

فــى هذا الركن توجد مجموعة الطوابــع التى جمعتها .

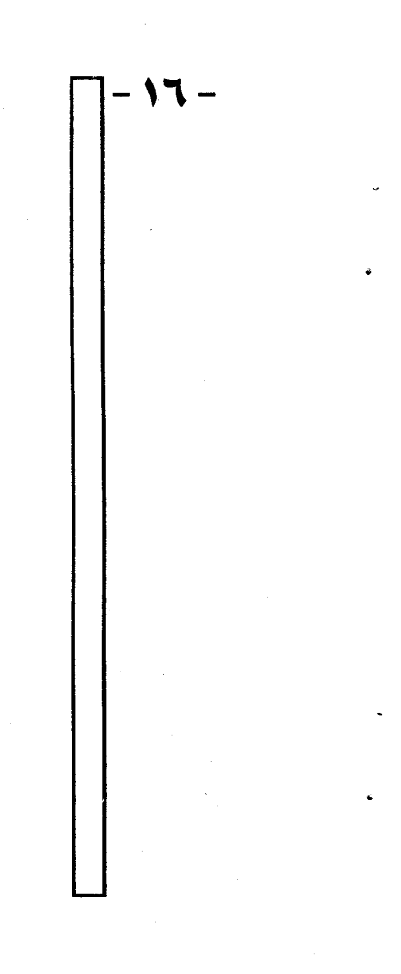
هى اللحظات التى أختلى بها بنفسى .. وأنسحب من كل الضجيج والقلق .. .. كان نور المصباح باهتا .. يحيل

الطوابع إلى قطع من الأوراق البـاردة .. بدأت أعـانى من تقلص سـاقى وأعصـابى .. أطللت من فوق كتفه شـاردا : هذا إذن هو المستقبل الذى حلمنا به .. العالم الأفضل .. الخــلاص من الأمــراض المتــوطنة .. تلك هى العــيــون الجديدة.

صـوبت نظرتى للطوابع من جـديد .. رمـقتنى وجـوه أعرفـهـا جيـدا .. صـحت عـيون من غفـوتهـا فى المتـاحف والمقـابر على الجـدران والكتب وواجـهـة الصـحـف. ملوك .. طغـاة وثوار .. زنوج وعلمـاء وشـعـراء .. الفـلاحة المصـرية وقوامها اللدن .. وأطلقت ضحكة عالية ..

أضحك « إذ يحسب صديقى أنه فر هاربا ».





المولد

O
O
O

المعدية تعبر بنا من البر الغربى ..

تركنا مليكة الوادى ترقد بسلام فى حضن الجبل المنيع .. إلى الأقصر نعود .. يتهادى بنا الفلك المشحون فوق النيل .. يميل ويهتز بشدة .. خلق وزحام كبير (لا التصاق .. لا التزاق أو نفور).

حديقة ذات بهجة وسرور .. وجوه مستبشرة رغم ما بها من أخاديد وضمور - آية النحت الجميل - سمرة داكنة .. ولون امتزاج النحاس بالنور ..

عيون حدقات مشرعة إلى بعيد صدور رافعة خافضة تود الانطلاق ساعة الوصول .. نساء حاملات للصفار وللتنور .. جلابيب وعباءات سود.

تبارك الخلاق هذا وجه حتحور خرجت من جوف الجبل المنحوت .. من البقعة المباركة .. جاءت تسعى من جديد - فى صورة فلاحة عفية - تنفث عطرها وسحرها .. تحمل شارة الملك فوق رأسها - قرنى البقرة الوديعة الطيبة .. هى سلة الزاد - قفة العيش الجميل - سوته على عين الشمس .. تحمل أمنها فى صدرها - قرص الشمس يحيط بها .. يتوج هامتها .. مثل الشجرة المباركة .. شامخة تضم وليدها إلى صدرها

(أحسست أنى أحتضن النهر .. يغمرنى الماء .. اتطهر فى جوفه أرتوى من سر الحياة .. وكنه الوجود).

وصلنا إلى المرســى القديم .. تحرك الجميع باتجاه الخروج .. حركة انتباه واستعداد ويقظـة .. لحظة جامعة وتوجــه وحيد (لا اندفاع .. لا اختناق أو مروق).

استعدت من قلنا عنها حتحور، خطونا نحوها نريد لنحييها تلمسها نطبع ملامحها داخلنا وبأعيننا.

على عتبة النهر أخذت تردد الدعاء ..

« مدد ياسيدى أبو الحجاج ..

يا أبو العزة والكرامة والجود..

ولا تخضع لمخلوق - قاصدين فيك وجه كريم ».

اقتربنا منها أكثر .. دخلنا دائرة الدعاء .. جئنا وسط دعوتها تماما .. وسعتنا ابتسامتها .. شملتنا بنظرتها والدعاء ..

« يعيد علينا الأيام بخير .. قادر ربنا يجمعنا ويلم شملنا ويؤلف بين القلوب ».

خفق منا القلب .. تدفق السرور وغمرنى النور .. سرى بيننا روح جديد ..

(أحسست أن النيل يحتضنى بقوة) ..



المياه الخطــرة

○
○
○

جئت أطرق بابك يا أبى فلم تجب ، وأخذت أدق حتى تمزقت منى اليدان لكنك غلقت دونى الأبواب. أوصدت عليك نفسك وبيتك، ونحيت عنى السمع والبصر. ماذا أقول ؟ هذا هو أنت . كما عرفتك ـ دائماً ـ رجل كبرياء وعناد . لكن الأمر اليوم مختلف .

جئت أودعك. أمد لك يدى . يدك حانية وقاسية أقول لك أخذت عنك الكثير. وتمثل أنبل ما فى داخلى اليوم انتهت قصة الخلاف، وجئت أعلن كلمتى .

استمع إلى ياأبتى فأنا ولدك . أنتمى بعنف إليك ـ ومن حسن الحظ أن الإنسان حر فى هذا المجال يختار إلى من ينتمى.

كان الصباح بهيجاً. ابتعلت كبريائى وأتيت .

قالت : هذه مسألة لا دخل للكبرياء فيها .

تصورت نفسى أمامك صامتاً. فى ركنك الصغير، كل الأشياء حولك لها رائحة البحر والقدم. مثلما كنت أجلس وأنا صغير أجد لديك إجابة على كل الأسئلة. أتصور نفسى هذه المرة ناطقاً (عفوك أبى سافعل كما تريد، لن اذهب إلى البحر لأمر صار اليوم مختلفاً . سأبقى على أرض العذاب هذه وأشتغل، لم أحلم بالموانى البعيدة والمدن الغريبة. لن أحلم بالموانى البعيدة والمدن الغريبة. تغسلنى مياهها وانتعش. أن أعبر البحار العميقة.

هناك سبب حقيقى من أجله بقيت، تحطم رأسى لوأنك تعرفه، تهز رأسك أسفاً « من أجل امرأة؟ »

أرجو أن تفهمنى مرة واحده ليس من أجلها . بذلك المفهوم القديم للكلمات - أنت بحار قديم تعرف أن المرأة موجودة دائماً فى أعماقنا - تغيب فى البحار وتعبر المحيطات وهناك فى كل ميناء امرأة ترقب الأفق وتنتظر.

صدقنى ليست مثل بقية النساء. هى فقط من ألهمتنى الفكرة، وجعلتنى أتخذ القرار. رسمت عقلا للمغامرة.

جئت أعلن السلام .. لماذا تخلفت عن موعد الاتفاق ؟ لم تعط نفسك هذه الفرصة الأخيرة. لم تعطنى.

من يدرى ربما لو تم اللقاء (لكان عاصفاً) ربما لم تبد اقتناعا . تأملنى أترانى عدت متأخرا . لماذا رحلت يا أبى بكبريائك صامتا ؟ بعيونك الصغيرة الفاحصة تبحث عن سر مجيئى وعودتى. فأنا لى نفس الكبرياء والعناد هذه المرة كنت أريد إلى درجة الموت أن ألقاك. أفتح لك نفسى، أدعك تلج ذلك العالم الموحش الغريب. تلمس مياهى الخطرة والدافئة.

المرأة التى أحبها قالت : أحياناً لا أفهمك ما شحنة العذاب هذه فى علاقتك بأبيك ؟ ابتسم يا أبى - إذا كنت قادراً على الابتسام - فالسرور غمرتى. جميل أن تجد فى شيئاً غامضاً تلك المرأة الساحرة - يهوى الرجل ألا يكون واضحاً دائماً - كانت تقرأ وكأنى كتاب مفتوح، وتضع بين يدى تلالا من الأوراق والكتب

وبمكر جميل تقول : أحياناً لا أفهمك. أنا وأنت يفهم

كلانا الآخر جيداً نحن أحياء مختلفون. حتى عندما عدلت عن رغبتي كان السبب مختلفاً هذا ما أردت توضيحه لك. وما كان يرقد في أعماقي دائماً.

قالت لي امرأتي : في داخلك أغوار عميقة لا أستطيع الوصول إليها. تلك المياه الخطرة لا أقربها لكنها تروعني . وبسرور عظيم (أحسست أني لم أكتشف) أحبها ؟ ما في ذلك شك، يزداد حبي (تود لو تغرق في المياه الخطرة داخلي)

قالت : أموت ساعتها راضية .

ساحرة هي . أحبها. أتدرى لم ؟ شيء يتصل بالبحر مثلنا. استطاعت أن تلوى مني العنق، تجعلني أنظر إلى واقع أرضي المترامية هنا. قالت : لماذا تهرب ؟

(لم أكن أريد أن أعيش في المدينة مثل جرذان الميناء).

قالت : تريد أن تحرث البحر مثل أسماك القرش الجائعة تسأل هل من منازل ؟ (طعم الحياة هذه يجعلني أعيش حيث الإثارة والمغامرة)

ومضت نظرتها ببريق مخيف : تبحث عن بطولة فارغة .

وأنا أريدك بطلا جديداً خالقاً. أبوك نفسه واحد من الأبطال. لماذا تفرض شيئاً بات مثبتاً ؟

في لحظة وددت لو أبكي. (أبحث لي عن مستقبل وسط البحار) تمددت الدموع في عيني. ابتلعتها، أحسست بالخطر، تراجعت.

قالت : أبذل نصف عمري ولا أرى رجلا يبكي.

ضحكت. عادت للمناورة.

وهكذا ترى أن نصف عمرى يذهب من أجل دمعة منك، والنصف الآخر يتبدد من أجل الوصول إلى مياهك الخطرة.

لم يعد لى شىء ويجب أن تقوم بوداعى.

(دعينا ننسى. نغب لحظة واحدة) عاد صوتها يجرنى إلى الإفاقة، روحى تنجذب إلى المغامرة. يجب أن نضع عقلا للمغامرة.

(والآن ماذا تريدين يا حبيبتى ؟) أريد للبطولة لديك معنى وهدفاً.

أرأيت العاصفة التى هبت على بلدنا ؟ هدمت البيوت والجدران. انتزعت ذرات رمالنا، جعلتنا نعيش مشردين فى خيام، مشردين داخل نفوسنا. كيف أعددت نفسك لهذا الصراع؟.

ولا أدرى من أين غلبت على روح المداعبة والمرح (أفهم أن تحولى بينى والبحر لأبقى بجانبك، أما أن أنزل من البحر من أجل أن أصبح محارباً فهذه جديدة تماماً) استمرت طلقاتها السريعة المركزة : أريدك بحاراً فناناً وخالقاً.

(خلقت لأكون بحاراً مثل أبى. أصارع العاصفة واصطاد الوحوش العاتية)

قالت : الوحوش البشرية أنشبت أظفارها فى جسد أرضنا.

حكيت لها أنك أيضاً أردت أن تجنبنى الصراع فى البحر.

استهانت : من أجل هذا تخاصمتما؟! عندما تغضب فتاتي تصبح كالعاصفة. كان قرارك ألا أقرب البحر ساحقاً مريعا كريح النوات العاصفة.

مثلك كنت أحلم بالبحر يا أبى، أريد أن أجتاز امتحاناً عسيراً. جميل أن نثبت قوتنا أمام نفوسنا. إليك وإلى عالمك أنتمي، لم تك صلة الدم فقط، لكن ذلك المعبود بيننا، والعشق القديم يسرى فى دمى. المياه الخطرة التى خلقنا لنجتازها وللمرة الأولى اكتشفت أننا يمكن أن نضيع عمرنا فى خلافات صغيرة تافهة، لماذا لم تنتظرنى يا أبى لأقول لك هذه الحقيقة البسيطة، التى اكتشفتها بعد طول صراع وعناء.

قالت : غريب صراعك مع أبيك. هل تريد مثله أن تنظر للناس مجردين بين السماء والماء؟

حقيقة الصراع هنا، أثبت البحار تفوقه وعليه أن يوقد نيران الثورة فى نفوسنا عذبة هذه المرأة يا أبى عذبة وجارحة. لا تكن كفقاعات الماء تضيع هباء، تتصور أن هامتك تعلو فوق الأمواج تناطح الصخر. تمزق أسماك القرش. ترقص مع الحوت الهائل، تخوض صراعاً وحشياً من أجل شهوة انتصار.

(فى لحظة يمكن أن يتخلى الإنسان عن شيء ظل فى عناد يتشبث به. يكسر دميته مثل الصغار.) أريدك واحداً منهم. أنت لا تنقصك الروح الخلاق. المغامرة لديهم تعنى تقديم لوحة فنية آسرة. نوع من العزف النبيل، قصيد سيمفونى، هل رأيتهم هناك على الحدود؟ كيف

كانوا يتحركون كراقص الباليه. وكلماتهم، هل سمعتها ؟ الشعر فى ارتقائه وعذوبته.

(هى لحظة يا أبى تجعل الإنسان متكاملا لحظة من زمان تحيل الصغير رجلا ناضجاً.)

أقول لك الحق، شغلتنى هذه المرأة وقضاياها الثائرة. لم أكن أنا قضية حياتها - لم أغضب - ألم أقل لك إننى أصبحت رجلا كبيراً. حكيماً وثائراً.

أردت أن أحكى لك عن التجربة وصلت إلى مياهى الخطرة. حركتها وأثارتها.

وددت لو أصحبها معى. تود رؤيتك. تستطيع أن تقنعك. فضلت أن أحكى لك بمفردى .

(طب نفساً يا أبى ولدك يتبع حكمتك).

ساحيا بروح بحار يجتاز الأنواء، ويناور العاصفة. أردت أن تجنبنى الصراع، لكننى وعيت قلب الصراع الآن، وأندفع.

(كان لها روح بحار وقدرته) أدارت دفة السفينة، حولت الاتجاه والهدف. وفجأة أشعر برغبة لأن أعود.

أحكى لك قصتى. ما عاد هناك مجال لخلاف. هل كنت تغضب لأن المرأة نجحت فيما فشلت أنت فيه ؟ حلّت لى المعادلة داخلى ..

أتراني عدت متأخرا .. أم أنك رحلت ولم تنتظر ..

هى كلمة واحدة أتركها فوق بابك معلقه : إنه الحب يا أبى.



- ١٨ -

على الشاطىء القديم

ο
ο
ο

وقفت على الشاطىء المجدب. يبرق أمل ضئيل فى الخلاص. بعد الشدة والمعاناه يقودنى اليأس إلى شاطىء النجاة. تتبدى السفينة شاهقة بيضاء تأتى كعروس فى ليل الزفاف. تحملنى وتدور بى فى البحار، استسلم لنشوة الدوار. أتوه فى خدر النسيان ،، كنت كمن يصرخ فى واد. ينشد فى صحراء. أدعو قومى ليل نهار.

أبداً لم يرتفع بينهم ترتيل ولا صلاة. مدينة العذاب والصمت أهرب فلم أعد أرى سبباً للحياة. « صعبة هى الحياة لكل الناس . »

فى أحلى سنوات العمر قررت الاعتزال. أهرب فلم يعد جدوى للبقاء أهرب فما عاد أحد يتعرف على. ينكرنى كل من يرانى. غريبة أزحف فى مدينة من الغرباء قال لى وأنا أودعه، يوماً ما تنتهى الرحلة، ونعود لنقدم الحساب لاحبائنا، للأرض، للبيوت. نقدم الحساب. يوماً بعد يوم تذبل أهمية الأشياء. مزقت كتابى، وخلفت ورائى المتقين والطغاة. أعانق لحظة النسيان. أركب البحر خفيفة بلا أثقال، أصل تائهة فى الماء . فى أحضان الموج يكون النسيان معجزة الخلاص. لا أرض ولا جدران، نسبح فى فراغ. تسللت فوق المركب فى ثوب الزفاف، وقفت أحدق فى الماء . ماء. ماء ولا جدران. ارتفع عذابى لما أطبق على الماء. الأمواج تطوقنى. ترقص. رقصة سوداء. كانت الأرض أحنى علىّ. ظل الحوت يتبعنا فاغراً فاه.

ولا أدرى من قـذف بى من سطح السـفـينة. نبـذتنى سفينة الخطاء. ألقونى فى اليم. ظلمات فوق ظلمات (ظلمة الليل ظلمة البحر. وظلمة بطن الحوت.) كان الله حاضراً وعلى أن أقدم الحساب .

صـحت كل الخطايا والأخطاء. الصـمت عـار والهرب عار، ندمت لمن تركت الحقول خضراء وعيون الأطفال. كنت كمن يهرب مـن الله. ندمت وأخذت أعيد تلاوة الصلاة. تطهرت فـى الوحدة نفسى ناديت بأعلى صوتى. قذفنى الحـوت الـى العـراء، أخذت طريقى إلى المعبد، أقيم الصلاة.

سـار معى فوق الطريق. رأيته يقبل الأرض ساعة هبط على التراب. قال لى « يوماً تنتهى الرحلة ونعود لنقدم الحسـاب لأحبابنا، للأرض، للوطن للطير أو السـماء » الرهبان كانوا هناك، خلف شرور العالم، اعتصموا وراء الجبل، انقطعوا للصلاة حسدت من نجحوا فى الهرب. لديهم شجاعة الاعتزال. أحمل رسالة لا يمكن معها الهرب أو النسـيان. قدرى أن أظل فى دنيا الصراع، لم أكن أصلح للاعتزال . فى مثل هذه السن، والأفق محمل بأبهى الضـيـاء وفى القلب حنين وأشـواق، لا يصلح للرهبنة من يعشق الموال، وعيون الأطفال.

يقف الراهب على الباب. رداؤه أسود وعيونه تنظر إلى لامكان. يحكى تاريخ المكان، ويشـيـر إلى التـحف والأيقونات. داهمتنى برودة الأماكن المقدسة. رعدة غريبة استولت على كانت الظلمة لزجة فى بطن الحوت. برودة الوحدة، وظلام القهر. رفعت صوتى بالدعـاء. همس بهدوء « هنا تستطيعين الاعتراف »

من يقوى على الاعتراف ؟. قدمت هناك فى الظلام، ناديت بأعلى صـوتى. يا الله ياحى يايقظان، يا خـالـق الأنسان من القلق. أخرجنـــى بحكمتك من بطن الحوت.

من بطن التـاريخ تدافعت الصـور والمرئيات. كـان من قديم الزمان قديسة جميلة يشتهيها كل من يراها.

الكل باطل. والجـمـيلة تقـاوم كل صنوف الإغـواء والإغراء تتـشـبث بالكتـاب، تحـتـمى بالايات الرحـيـمـة، بالكلمات.

لكنى قـاومت كـإنسـان. عـذبنى الخـوف من القـهـر والانكسار فى النصف الأخير من القرن العشرين، لم تكن تنتظر معجزات القديسة رأت أن تنقذ طهارة روحهـا، أوت إلى الجبل تتفرغ للعبادة والصلاة، عاشت بين الصخـور ولامـاء. صـخـور وأحـجـار ولامـاء. البـحـر ملـح أجـاج . أمـواج. جبال عالية من الأمواج، ولا ماء هناك.

طوقتنى الأحجار، عذبنى العطش، عانيت فى وادى الجفاف. صـخـر. صخر ولا ماء القديسة تبعها قوم غلاظ أشداء، ضربوا حـولها الحـصـار .. الغزو والاستـيلاء ثم يكون الاستسلام. فضلت أن تموت بالعطش لم يرتو منها الجسد. أبحث عن مـيـتـة جـمـيلة مـثلـهـا . سـال دمـهـا على صـفـحـــات الكتـاب. غطت الصـخـر بقع الـدم. تفـجـر ينبوع من الماء.

أنتـهـــيت مـــن الاعـــتـراف. تطهـرت نفـسى عـاد لها الصـفـاء. ندمت هناك فى الظلام. تركت قـومى وناسى. ضحكات الأطفال، عيونهم المشغولة عما يجرى حولهم. وليت ظهرى لرسـالتى. يحفظ التـاريخ قصص القديسين

والشهـــداء، يبتلــع الحوت كل الخـائفين، والهـاربين من الله.

« الراحة بعد الاعتراف. التوبة بعد الندم » كنت كمن يهـرب من الله إلى الله. الأب المقـدس ارتفع عنا درجـات. المنبـر حلق حـوت هـائل يقف داخله يلقى مـوعظتـه. « الرب الرحيم، نستغيث به فى الظلمات . »

« لا بد يومـاً أن تنتهى الرحلة، ونعود لنقدم الحسـاب لأنفسنا، لأحبائنا، وللتراب. دم ولا قطرة مـاء. صخر ولا مـاء سال دمـها على صفحـات الكتاب، تفجر ينبـوع المـاء .. عين صـافية يشرب منها المحبون والأنبياء تذوقت طعم الماء دمى كله اشـتيـاق. العودة ومـعـجـزة الخـلاص. باركنـى الأب « اطيعى صوت السماء. لاهجر ولا فراق. زواج. أبدى.

- نعم قبلت.

قـبلت أيهـا الأب المقـدس. مـرة أخرى أعـود. الطاعة لرسـالة السـمـاء أحنيت رأسى بـخـجل العذراء. كنت لازلت مـرتدية ثوب الزفـاف، تمـايلت الشـمـوع. ضـاء المكان. تدلت الثريات العتيقة وابتسمت الأيقونات، انزاحت عنها أكوام التراب. غمرنا ضوء شديد، صرنا نسبح فى الضوء معاً .. ولد النور من قلب الظلام.



حاجـز أمـــواج

o
o
o

القمر بدر هذه الليلة. المد يعلو بى، مع الجزر تنسحب روحى إلى بعيد. هناك يربض الرجال يستبد بهم القلق والجنون، هل يمنحنى القمر العنف بدلا من الجنون. يتكسر لدى نشيج مكتوم. تلطم وجهى الرياح والأمواج، تقتلعنى العاصفة من الجنون.

أعرف تماماً ما يعتمل فى نفس هؤلاء الرجال. مثلهم أريد أن أندفع فى قلب الأتون. حاجز أمواج من اللحم البشرى.

« ليذهب كل منكم إلى الشاطىء ويلقى بصخرة حتى نقيم حاجزاً للموج عظيم ». هكذا كنا ننادى فى المدينة، ونحن تاريخ ممتد لمن تدافعوا وكتل الصخور لبناء الهرم الكبير، ولكن فى الظلام امتدت أيد كثيرة تطوقنا تلقى فوق رءوسنا بالأحجار.

تفرق الجمع، واحتمى كل واحد بعتمة الطريق. ومن نافذتى جلست أتأمل الناس والطريق . القمر بدر هذه الليلة لا يغير ذلك شيئاً من طابع الجلسة والهموم. أريد أن أمد يدى للسائرين، يجب أن نعود للتجمع من جديد، نفحت الصخر، ونقيمه عاليا، نزرع البحر بالصخور، ونحمى السفينة، لكنهم .. يبتعدون، كالأشباح يسيرون، يحملون أشياء بين أيديهم ويسيرون. انتهت رحلة الشقاء اليومى، الآن يعودون للبيات الليلى، هى لقمة الخبز ما يحملون .. شيئا يقتاتون به. يغيب كل واحد داخل قوقعته.

ويظلون هكذا حتى دورة الشمس من جديد.

أهكذا تكون دورة الزمن، نعمل ليمكننا الحصول على الرغيف، نأكله لنستطيع أن نعمل من جديد. وبعد ذلك « جزيرة منعزلة » ؟ أروع شعار مرفوع، هو كلمة السر والأمان « ما هكذا تكون دورة الأيام ».

تتجمع المياه الراكدة فى الطرقات وحول البيوت. صوت الأمواج يهدر من بعيد. صورة الميناء والفلك المشحون، حاجز أمواج من اللحم البشرى. لا يعرفنى هؤلاء الناس، لا يدرون، أى حب يفيض ، انتهى زمن الحب الخيالى البعيد .

لو يطل على أحد. نظرة تمنحنى الأمان، تقتلع الخوف من النفوس دعوة للتجمع من جديد، لننحت الصخر معاً .. ونلقيه حول الشاطىء، يرتفع يوماً بعد يوم. حاجز الأمواج ويغنى البحارة فى رحلة العودة.

لكنهم يسيرون متفرقين، عاشقة خلف قفص من زجاج نظرتهم تتعلق بالأرض. لا أحد يرفع رأسه، أو يعلو منه الجبين.

عينان قدتا من شرر تنظران. فى الصباح خلف جريدة، تظل تلاحقنى وتتطلع إلى كل حين.

أرانى أقف يوماً على حافة النافذة، أزعق لأقول : (أيها الناس، البؤساء فى الداخل والخارج. خلق الإنسان عالى الجبين. والعيون متطلعة، لماذا تتركون كل شىء ينطفىء ويكتسى بلون التراب).

هو فقط هو الذى ينظر إلى أعلى يحملق يرصد.

لماذا لا نتوقف قليلا .. نتحدث معاً ينتزع كل منا

صخرته يلقيها هناك ولا تترك سفينتنا تتقاذفها الأمواج هكذا وسط البحر الكبير.

لا يتوقفون هؤلاء البحارة الأبقون.

إلى النافذة أعود، أكتب شيئا له نفس المذاق. من الأفضل أن أرسمه أستعمل نفس المفردات.

ضاق الرجل بجلستي منذ الصباح. لا يجد ما يكتبه عني، حالة مستعصية على الكلمات، المفردات المقررة والتي يحفظها على ظهر قلب، بعدها تتخذ الإجراءات.

« تجلس صامتة كتمثال، تبقى ساكنة، أمامها كومة من الأوراق، بعض الكتب. لا أحد يتحدث إليها، من مكمني أراقب جيداً الطريق.

لا أحد يدري ماذا تصنع طوال الوقت. مريبة جلستها بلا شك ».

لكنه لا يجد بعد ذلك ما يقول .

عينه الأخرى قد تكون معلقة بالسقف. فوق المصباح، لا تجد هي الأخرى ما تقول. العين الآلية تلتقط كلمات. بعض الرسوم (تمزق ما تكتبه أحياناً تغيب في تفكير عميق). لم تصل الإلكترونات بعد إلى كشف ستر الرءوس أية أشعة لم تصل إلى داخل التموجات والتلافيف.

ضاق المخبر بالتمثال الجالس. الكاتب المصري القديم. المحبرة والأوراق أوراق البردي سجلت شكوى الفلاح الفصيح. « كن عادلا، لأن العدل خلود. العدل باق لأنه عظيم، ينزل معك إلى القبر ، ويتقدس به اسمك.»

أظنها منقوشة على جدار. محفورة في ضمير الصخر. أعيد شكواه بصوت مكتوم. ينصت دون جدوى

منذ الصباح .. حتى موعد تسليم الوردية. الآخر له نفس الملامح والضيق، لا يصدق الصمت والجمود. وهيئة التمثال القديم..

أغرى غلاماً أن يقذف النافذة، انشق لوح الزجاج، تكسر ، سالت أشلاؤه فوق الطريق.

لم تغر الناس بالوقوف، والنظر إلى فوق ساروا محنية ر وسهم. بلا فضول .. مسكين أنت يا صغير، عمرك عشرة يا ولدى، أو لعلها عشرون. علام ربوك؟ ماذا قالوا لك منذ مولدك ؟ أرضعوك اللبن مغشوشاً. فن التزييف. وقذف الحجارة. ثم تشب عن طوقك لتصفق، وتصرخ .

ذهبت عنك فصاحة الشاب القديم. أسطورته دوت فى الوادى، تعالت إلى سماء الإله القديم.

اهتز النهر. توهج الوادى بلون النار المقدسة، وغطت قصيدته تراتيل الكهان. عمرك كم ؟ عشرة ، أو حوالى العشرين؟

هكذا منذ آلاف السنين. وقعت عليك لعنة البحار التائه توقف الزمن. تنتظر الموت ليكون الخلاص، لا تعرف شيئاً يا مسكين. لا تعرف حتى كيف تلعب مثل بقية الأطفال. حيل بينك وقصص التاريخ. تلك الحكايات الغريبة المعذبة. لم تسمعها من جدتك، ووالدك كان محزوناً فلم يقل .. لم تتوقف تحت نافذتى فأنشدها لك.

لا تعرف من أنت ؟ ومن أنا ؟ أتعتقد حقاً أنك من سلالة ذلك الفلاح القديم. أجدادك من يقفون تماثيل حارسة للنهر العظيم.

أجلس مثل تمثال الشمع. فيم كان الألم وعناء

المخاض، ولدت عقيماً. لم تولد بعد، أجهضت. في سن العاشرة وحدود العشرين. زمن يجهض فيه الرجال. كانوا فيما مضى من ضلوعهم تولد المرأة والطفل. كانوا فصحاء حكماء

شاب الأطفال روعوا قبل أن يولدوا. كانت بذرة تحوى داخلها الخوف.

لم يعد للرجال ضلوع، والنساء تظل مصلوبة هكذا خلف نوافذ الزجاج أو أبواب الطين.

ولكن ذات ليلة يولد طفل جميل، من قلب العناء يتوهج النور. هكذا قالت لنا الكتب والأحبار. يولد المخلص ذات فجر جميل، وسط الظلام تجيء لحظة المخاض، ويندفع من عتمة الداخل وليد. ظللنا نتحمله سنين. آن له أن يوضع.

لغـــة خاصـــة

ο
ο ο
ο

« كلمة الحب »

بصوت عذب خفيض .. ونبرة مشعة - بالفرنسية قالها.

(انسابت النغمة تحوى دفء الشمس .. ولمعة الموج .. وعبير المطر).

- كأنما أعلن بعثى من جديد . أعلنها كقرار نهائى .. خلاصة تقرير هام وخطير ..

(تنهدت .. تنبهت .. بكيت) .

- قلقت لما تذكرت ..

عندما جاء تشيكوف الموت .. صاح مرحا : اقفل الستار

- قالها بالألمانية - نطقها بشوق غامض خفى .. بعدها أغلق عينيه ومضى .. بهت من حوله جميعا .. لم يسبق لهم معرفة أنه يعرف حرفا من اللغة الألمانية فكيف تكون عبارته الأخيرة بها ؟.

حقا أغلق الستار على قصة حياة نادرة .. انتهى الفصل الأخير من مسرحية ساطعة .. ولكن كيف واتته « العبارة » هكذا .. نبوءة .. سريعة وامضة ..

- وبلغة لم يتعلمها من قبل-

* * *

أخيراً قلتها .. وجدتنى أهتف - وبذات اللغة - لست أدرى لم ؟

هكذا جاءتني الحروف .. متدفقة .. متدافعة .

- ٢ -

(صوت تفجر فى قرارة نفسى .. كالمد تصاعد من عمق « القاموس » لدى .. تأخرت عن موعدها عشرين عاما .. ظلت كامنة .. رابضة حتى مسها الوجد .. مضها الشوق .. وفار التنور) .

كلمة الحب - قلتها ولم يغم على .. بل انتفضت الدماء فى عروقى .. واشتد تيار الوعى .. تداعت الذكريات وبرقت الذاكرة : (كنت كمن أقر بالحقيقة واعترف).

- « سيدة من نوع خاص أنت حقا .. متفردة » .

(أقصى ما كان يصرح به .. يفصح عن كتمانه .. ويعلن عما بداخله ..)

كنت أعرف وأصمت ..

(من أجل هذا اخترت حياة الغربة والتنقل)

اليوم جاء موعدى :

(لأكسر حاجز الصمت .. أعبر فوق جسر النطق .. وعلى سلم النغم أرتقى).

فقط لماذا عندما جاء دورى .. وحانت الشهادة ..

نطقت بلغة مختلفة ؟.

* * *

- هل أنت زوجته ؟.

فاجأتنى الممرضة .. حملقت فيها بعيون ذاهلة .. رأيتها من خلال دموعى كتلة بيضاء متحرّكة ..

- يناديك طول الليل .. ويهتف باسمك ..

« أين كنت .. ولم تأخرت .. فى لحظة تمنيت أن أغادر المستشفى .. أبحث عنك وأحضرك .. ينادى بصوت يذيب حبات القلب .. »

(كما تصدر أنات الوضع .. صوت الجنين عند الولادة .. صيحة مشبعة بالفرحة والألم) ..

- لا تندهشى من تأثرى لحالته .. فى مهنتى هذه لاقيت بشرا كثيرين .. ولم يصعب على واحد مثله .. ليس لانه شخصية معروفة .. أحسست به كإنسان .. إنسان مصفى .. له حضور - حتى وهو غائب عن الوعى .

- ٣ -

عرفتك منذ اللحظة التى دخلت فيها الغرفة .. لابد أنه أنت ..

بوسعى أن أميز بين الشخصيات .. هو من النوع المرح .. ملء السمع والبصر .

ولكن اسألينى عمن يخفون آلامهم تحت ستار المرح ..

يتساقطون فجأة هكذا ..

- قلوبهم لم تعد تحتمل .

غيبوبة متقطعة .. وعندما يفيق ينادى عليك ..

ولكن لماذا تأخرت ؟.

* * *

أحببنا المسرح معا .. جمعنا ذلك المعشوق

بيننا ..

(المسرح هو فهمنا المشترك .. حبنا .. رؤانا الممتدة عبر الافق).

- ينظر للفن المسرحي باعتباره مصدرا للجمال .. وتحليلا فنيا للعالم - نكون معا فريق عمل منسجم ..

عندما تزداد حدة الاقتراب .. ويصعد الموقف إلى ذروته .. كنت أركن إلى الفرار ..

أبعد شطر الرحيل .

أشغل نفسي بشئون أخرى .. وأستسلم لدورة الحياة العادية ..

(وأن تكون معلوما لدى الآخر .. تتجلى صيغة التخاطر بينكم .. وتتضح الرؤية والمعرفة ..

هذه المتعة من التفاهم والمشاركة هي غاية الفن والحب معا) ..

لم يكن غريبا أن يفتننا تشيكوف ويبهرنا مسرحه (يخلق إيقاعا للود بيننا .. يخرجه بعيون جديدة .. رؤية متفتحة .. ونظرة تستلهم رياح التغيير القادمة).

لم يا ترى جعل تشيكوف كلمة النهاية لحياته بلغة أخرى ..

أي رؤى تعلق بها خاطره .. وأي بث استقبل عنه العبارة الموحية .. التقط الإشارة .. سجلها بلغة تختلف.

* * *

لكل منا حياته الخاصة ..

قدم من أقصى الصعيد .. يحمل فوق عاتقيه عبء زوجة مريضة .

جميلة ثرية .. مدللة .. وتعانى من ضعف قلبها .

تكبره فى العمر هذا حق .. ولكن من أولى بالبنت من ابن عمها .

- الشهامة صفة متوارثة من أصل العائلة

- وحتى لا تذهب الثروة إلى الغرباء.

- إن هى إلا أيام معدودة لها فى الحياة .. بعدها ترحل ويكون قد أدى واجبه ..

(هناك فارق بين الشعور بالواجب والحب) كان حلم المسرح يراوده ..

ودور البطولة الاول يعرض عليه .. وبذل فيه أقصى ما يملك من طاقة وجهد .. أدى بمهارة دور الفارس النبيل الذى يقدم على التضحية ..

توج الزفاف بعهد وقسم أن يجعل أيامها الباقية حافلة بالسعادة والراحة ..

- منذ أكثر من عشرين عاما وهى لا تزال مستسلمة لقدرها .. مرفهة .. مدللة .. ناعمه .. تخشى النوبات المفاجئة .. لكنها - كما يقول عنها - تتمتع بإرادة قوية وروح عالية - تعود الجميع رعايتها والاهتمام بها والتضحية من أجلها ..

- لها ابنة عروس تؤجل موعد زفافها دائما خشية فراق أمها ..

- وابن يدرس الطب ليكون فى خدمتها دائما ..

والآن جاء دوره ليسقط مريضاً بالقلب .. وبعد أن تخلى عن كل شىء .. فارق الأصدقاء .. وهجر المجتمع ..

- تعاودها النوبات اذا ما فكر بالسهر .. أو ساهم فى ندوات الفكر .. استغرقه ألعمل أو اقترب موعد سفر ..

- هى لا تأمن على نفسها إذا ابتعدت عنه وتفضل إن جاءها الموت فليكن بين ذراعيه - لم يجرؤ أحد على مناقشتها أو رفض طلب لها على طول المدى ينتهى النقاش والاحداث بالخضوع التام لوجهة نظرها ..

المسرح فقط هو الذى لم تقترب منه - وكل ما تبقى له.

(أدركت بذكائها أنه الخيط الوحيد الذى يربطه بالحياة ..)

- ٥ -

مع ذلك نال منه الإجهاد والضنى .. لم يعد قلبه يحتمل

ظل يعمل بلا كلال .. ويقوم على الخدمة .. حتى وهن منه القلب وأدركه الأنهاك والتعب - نادى على من داخل غيبوبته -

يدعونى - دون كل أفراد أسرته -

(يرسم حركة اللقاء المرتقب .. إبحار .. مسرح وسفينة ..)

حركة مخالفة ..

إيقاع حسب بوصلته الداخلية ..

لم أكن قريبة .. ولا فى مجال محيط دائرتهم .. ولا حدود المدينة بأسرها .

(رآنى داخل ضباب الرؤى .. وفى عتمة الغياب .. نادى اسمى .. وأعلن مقدمى).

وكان على يقين من تواجدى - قبل أن يفتح عينيه .. ونطق بكلمة الحب مباشرة .. بتلقائية .. صريحة ومؤكدة فقط بلغة غير اللغة.

* * *

شاهدته ساطعا فى عرضه المسرحى فى العاصمة الأوربية (كالنغم المقروء كانت حركته ..)

اعتذر عن حفل الاستقبال أو دعوة العشاء لحرج صحة زوجته ارتباطه مع أطباء القلب المشهورين (فى كل رحلة تصحبه . تقول متاعب السفر أهون من ألم البعاد وقسوة الوحدة)

تحدثت عنه بالإذاعة والصحف .. لم يعثر عليه أحد ليوجه سؤالا له .

أبدت منيعة صغيرة دهشتها : لم تركت له مهمة ترجمة مسرحيتى رغم اتقانى اللغة - (أردت أن أضيف عمقا جديدا لها وأحساسا طازجا).

عندما أضيئت الأنوار فى الصالة .. رفع وجهه إلى .. (لحظة تمازجت فيها روحانا وحلقنا معا ..)

لمحة من الزمان امتدت حتى لحظتنا الحاضرة .

قال : « أحبك » بلهجة مؤثرة .. بفرنسية حانية .

* * *

ـ ٦ ـ

يبدو مسترخيا .. حالما .. يبتسم ..

ـ السفينة لا تنتظر .. الفرقة سبقتنا إلى هناك .. سيكونون فى أستقبالنا أشعر ببرد .. جسدى يرتجف .. قلبى ينسحب منى ..

(ربما الإنسان أمام لحظته الحقيقية .. توهج الحب أو الموت .. يعود نقيا .. ملهما .. تتجلى قدرته .. يقرأ .. يصير ناطقا).

كأنما غادرتنى روحى فجأة ..

فرت منـــى خارج الغرفـة .. وجدتنـى معه نخوض فى الماء ..

سفينة بالأفق نرتفع فوق سلم الزمان كأنى أشهد بعثى .. نولد من جديد « لغة خاصة » تشيع حولنا .



- ٢١ -

مهاجر فوق الماء

o
o
o

الأشياء تبدو باهتة، ذاهبة الوعى، والمنظر ساكن جامد.

سبع سنين أرقبه.

شاهدت بعدها الحياة.

رأيتها تنساب بين الطرقات، تنتفض فوق الماء.

تغير الجو فجأة، زايله الركود والثقل، عادت رائحة البحر مثيرة.

دفقات الموج تنتعش، تدغدغ جبين الصخر، تغيب معه فى عناق.

سرت نشوة داخلى. صحت الأشواق. كالمد يرتفع الحنين

فى ليلك الصيفى ياسويس، كنت أحلم وأنتظر، أغفو على جبين الحلم، أرقب وأنتظر. وبعد أن يموت النهار، ندعو الله أن يهبنا رؤيا صدق من لدنه وتتجسد لنا الأمانى، حلماً يطول بالليل. نشم عطراً كما فى زحمة الميناء. وخطو الرجال المتعبين شغيلة البحر والسفن.

لكن الليل يطبق كوحش مهان جريح، والبحر دون اللقاء. كتب علينا الصبر، والانتظار يليق بفتاة بحار.

(أراك تخطر فوق الماء تمتطى صهوة الموج. دائماً

يعلو صوتك قمة الصارى، بيدك مفتاح المدينة).

وهل عدنا إلى الأحلام ونحن بين اليقظة والمنام.

(أتراك تعود يوماً مثلما يلمع فى الأفق الشراع)

لم يكن حلماً ما أرى، ولا وهماً من عبث النعاس. لكنى رأيتها « الحياة » مثل كرة سحرية تندفع من قلب الماء، تتدحرج فوق العتبات، وتضىء الشرفات.

صحت الأشجار ومصابيح الكهرباء، تمطى الطريق. آفاق الجسد العملاق. مرقت من فوقه العربات. فتحت الدور أبوابها.

وأنا من وقفت أردد فى ذهول ذات مساء :

(أين فرسان المدينة ؟ أين هم يتجولون فى الأسواق، ويزحمون الميناء؟)

وارتفع صوت أعلى من العباب.

- اليوم يعود من هجروا الديار، ومن هاجروا.

(من اجتثوا من فوق الأرض. أخرجوا من عبق الأمواج، والمياه الدافئة)

- يعودون مرفوعى الرأس، عالية جباههم.

(يعود لى معهم. يشير الحديث إليه، تعنيه الكلمات)

قال : أعود فى الظهيرة مرفوع الرأس، راكباً مركبى ننتمى إلى هذى المياه العميقة، أشعلنا النيران فوقها وسرى الدفء إلى قلب المدينة.

(سرى الدفء إلى قلبى. أحبها بلدتى الجميلة، هى نفسى جوانيتى، ركنى الخاص من العالم).

لم أقو على فراقها، لم أخرج منها حذر

الموت أو الأسر.

عندما واجهتنى خالية، شاخصة عيونها إلى السماء، شامخة برغم كونها حزينة بكيت.

بكيت شواهدها وقبابها المهيضة، صخورها المرجانية، وفنارها الخامد.

أبقى على صدر مدينتى، لا أهجر ولا أهاجر.

نظر إلى مشدوهاً : أنت هنا ؟

- فيم بقاؤك بينما ذهب الآخرون ؟

- لا أعرف لى مكاناً آخر.

(أتمزق أفضل مع هذه الدور القديمة، يخترق جسدى الرصاص، فوقه ألف ثقب مثل واجهة الجدار، لكن أعيش مع مدينتى، أو أبحث لديها عن ميتة جميلة).

قال : ولم العناء ؟

- وإذا ذهبنا جميعاً، من يعطى المارين من هنا كوباً من الشاى أو جرعة ماء ؟

من يمنحهم نظرة امتنان ؟

نفر جميعاً، ونتركهم فى الخنادق ، والدشم.

ضحك - مازال فى العالم ضحكة بريئة.

عاد وتجهم. نظرة فاحصة آسرة.

(مازال يأسرنى توهج نظرته، وتلك الأشعة النافذة الخطيرة).

ألقى إلى قرارا خطيراً.

- لن نلتقى.

سيكون الأمر عليك عسيراً.

من البحر يجب أن أعود . اللقاء والقناة مغلقة، ليس هو الملتقى.

مذاق الحب مرير ـ وذلك الشريان حوض بيننا.

ـ نوجد معاً، نقتربه وكل منا جزيرة موحشة. يفصلنا بحر الهزيمة.

(شعور مثل الراحة، كسريان الخدر قبل الجراحة. وعيت ما يقـول .. ليس أمامنا سوى الانتظار)

ـ والانتظار يليق بفتاة بحار.

وحـيدة أرقب مـيـاه القناة. ليـست حـاجـز مـاء، دم ودمـوع. آهات ألم تسـاقط فى جـوفـهـا، سكبـهـا الأجداد الأحبـاء، والسـيـاط تلهب ظهـورهم مـازالت فى أعمـاقـهـا دماؤهم ساخنة.

حلم بها القدماء ـ أيام الحضارة والنقاء ـ أخذنا نحلم بشقها من جديد. بعث الحركة فيها. جسراً يمتد فوقها، شراعاً يلوح وراء أفقها. ونجمة الميناء تلمع كنور اليقين.

لكنهم قـالوا لنا : غـادروا الديار، ليس لكم مقـام هنا، هيـا أخـرجـوا، انتشـروا فى الأرض، تشـردوا، عـانقـوا الضياع. (وحتى تعود من جديد أرضنا لنا. سبع سنين أو يزيد ، انسـحبت فـيـهـا داخل مـدينتى، هـجـرتى كـانت إلى الداخل مـثلهـا. تتـدثر فى التـاريخ والأمل، وهكذا فـعلت مصر كلها.

لم أقو على فراق صغيرتى « سويستى »

قصـة حبى ولدت هنا. من يقوى على فراقها؟ لنبق،

تحيط برجال بقوا فى الخنادق، دائرة الأمل معلقة بعملهم، تحصنوا بالصبر، العمل الدائب، يحلمون بإقامة معابر العودة فوق أجسادهم.

صرت أنا والمدينة شيئاً واحداً ..

قال : تنتمى إلى هذه الأغوار الصعبة، والمياه العميقة، لن أدع سفينتى تركن للجفاف، وأعدها لبدء الرحلة . ورحلة العودة تبدأ من هنا .

- يقولون الحب ينوى مع البعاد .

ما بال هذا الحب تتقد جذوته!

بكيت ..

- الحب مؤجل والقناة مغلقة.

ابتل صوته بالدموع. يحاول من جديد المرح :

- نصنع أطواق النجاة بعملنا .

يوماً نعود، نشعل الفنار، نهدى الضوء إلى المارين ببحارنا .

- لا تخشى شيئاً، من قلب القمه يولد النور

(نوع الكلمات التى صرنا نتناجى بها)

وذات يوم جميل، تعالت الأصوات العذبة، كشلال يغسل وجه المدينة.

- اليوم يعود من هاجروا .

(يعود لى معهم، تئوب كل الطيور المهاجرة. يعود فوق الموج، من البحر كما كان يشتهى ونلتقى. آن لنا أن نلتقى).

وسط فرحة طولها قناة وبهجة بعرض البحرين معاً

ازدحم المبناء وارتفعت الأعلام وزغردت السفن اليوم
موعدى ..



- ٢٢ -

نجمـة الميـنـاء

o
o
o

(الخريف. والنفس ممزقة. ملىء نفسى الفجيعة).

مدينتى غارقة فى الظلام..

الجرح يدمى والرأس يشتعل. أحاول الخلاص .

فى قبضة الأرق وقعت. عيونى بلا غطاء، تلتمع بجنون الأرق، ترنو إلى لذة النوم، وراحة النسيان.

عيون مشدودة إلى أمام. حبات مهدئة تعين على الاسترخاء . الجلسة عائلية، والحديقة جرداء. شجرة وحيدة تشرق بالجفاف. حولها قوم بور، وطفلة تقفز وتمرح.

تود بجنون أن تعتلى الشجرة. جلسة ران عليها الهدوء والشرود. تزحف من حولنا نفس الدائرة السوداء.

دوامة الكلام لا تنتهى. تشحب المرئيات وتغيب، والوجوه يسيل من عليها الطلاء لسانى ثقيل. يتمدد بعجزه. الصمت عار.

أجيال مضت لم أسمع فيها صوت نفسى غابت المقاطع الحلوة، وفرحة الكلمات أين يمكن أن يهرب الإنسان؟ ..

قوقعتى أحملها فوق ظهرى، أحمل فيها همى. قطعة حية تجرى منى على الأرض. تتسع رقعة المستنقع. يصيبنى الفزع.. وأقف على حافة الجنون.

- « لماذا أنت صامتة ؟ فيم الشرود ؟ هى مثلك تنتظر، تريد عودتى. أشد منك قلقا وانتظاراً.

فى خدر العذاب أغيب. فى تيه الألم. تبدو أمامى فوهة بركان تسيل منهما الحمم ولاتدرى أى آلام تسببها لى.

تهتم به، ترى الشمس تشرق من أجله، عندما يعود تحيطه بالتدليل والمديح وسيل الكلمات.

أرى الكون مصبوغا بلون الدم، مشبعاً بحمرة الشفق، والأفق يحتضنه الظلام. لا تهتم بألف مليون قتيل. أحمل كل الموتى، أموت بينهم آلاف المرات. يتدلى .. عنقى مثل بقية الثمار.

يعود ويعودنى الكثير منهم، مثلى يحبون الحديقة، والشدو والغناء.

يعود واحد منهم. يهتز وتر فى الأعماق. رجفة قصيرة لا تلبث أن تهمد. ويصحو القلق، ومتابعة الأبناء.

« لماذا أنت صامتة ؟ تودين جرح شعورها. بالصمت تؤذى مشاعرها يعنى أنك غير راضية، لا يستهدفك حديثها، لاتستمعى منها إلى الحكايات »

يشتعل تأثير المخدر يجذبنى الصوت إلى الإفاقة. تصحو اللعنة. تتبدد نعمة النسيان، تهوى مقرعة التأنيب. تهبط بى مقبرة قديمة. يوجد دائما الروح والقرين.

عقدت الجلسة، المحاكمة، والشهود حضور. الصمت اتهام وعقاب« أنت صامتة طوال الليل ».

تتعمدين إهانتها، تعبرين عن ضيقك بوجودها، أحذرك فالصبر ينفد. (صبرى نفد منذ وقت طويل، منذ

متى كانت قدرى، تجلس فى مواجهتى، تتصدر الحديث والشرفة. دوامة الكلام لديها لا تنتهى. بالوعة الغثيان تتحشرج. دبيب النمل يزحف على الجثة، طازجة أو محنطة. كم استغرق موتى ؟ حكاية مستمرة، مفتوحة، فاغرة، لا أعرف متى بدأت وكيف تنتهى.)

تعرف كل أيامها معه. اللعب والبكاء كل خدش فى جسده تعرفه اللعبة كل مساء، تجعله يضحك ويبكى، ويعانق الذكريات.

ليس لى بينهما ذكريات.

لا طفولة ولا تاريخ، حكايا تسد منافذ الزمان. بريق الحكمة. تقمع التواصل واللقاء.

تلاشت، كل العلامات ضاعت من سفينتى نجمة الميناء

يوماً ما كان بيننا حوار، تداخلت بيننا الحكايات، أثمرت المشاركة، وتمازجت الأرواح، قطعت كل الأسلاك، استولت على جميع الموجات. وطبقات الصوت يزعجنى صوتها، وقة اتها القاتلة، عيونها تلمع بابتسامة وحشية، ابتسامة المجاملة على شفتيه.

تتفوق عليه صغيراً، وتركب رأسه فى الكبر.

ينتمى إليها بلا شك، عرفت سر المصرى القديم يتزوج أخته

« من قديم الزمان يجب الاستماع لمن هم أكبر سنا. تلوذين بالصمت. بالصمت تهربين، وتعبرين عن الرفض ».

وجه إنذار للطفلة ألا تعلو الشجرة.

عيون الصغيرة تنطق بالدهشة. تود إلى درجة الجنون

العلو فى الهواء. تعبر عن نفسها بالحركة الصعود مناسب لبراءتها تثور على من يعطل قفزاتها. لايفكر أن يغضب أو يثور.

إلى حد الجنون أود أن أعتلى الشجرة. دوى انفجار. قذيفة تنطلق من صدرى. هوت لطمة غادرة، فوق أرضى اعتداء. أنا ومدينتى تعرضنا للهوان

حبست الشهقة فى صدرى، لم أطلق للصرخة العنان. أصرخ ولتتحطم الأرض على السماء، ليتبدد الضباب، أو يفنى كل شيء.

فقط يكف الصوت المزعج، تتوقف البالوعة الخربة، وتعود إلينا أحاديثنا الدافئة، وأمسيات الحنان.

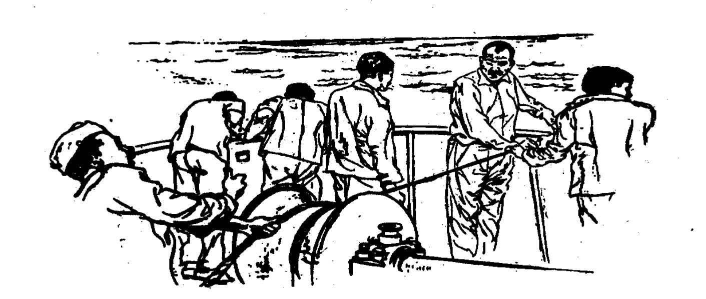
أيام كان الحب هو مادة الحديث. تاريخنا المشترك، الحلم الذى نتطلع به إلى أمام والطفلة تنقض من قلب الجلسة. تصعد كالفراشة، يطل وجهها ضحوكاً بين الأغصان فى لحظة اعتلت الشجرة، وتصرخ فرحة، تطلق لصرخاتها جسراً ممتداً إلى الفرح.

« مجنونه لعلها مجنونة »

تحولت نحوى الحدقات، حاصرنى الاتهام، لم يداخلنى القلق. تفرد ذراعيها كبتلات زهرة تتفتح على قطرات الندى، وتطلق الضحكات.

انقضى وقت طويل منذ أن سمعت صوت نفسى، أنطق بصوت عال.

ملأ الهواء الرطب صدرى، وتعالت الضحكات، تراءت لنا على البعد نجمة الميناء



- ٢٣ -

البحـــر رجـــل

○
○
○

الجو ملبد بالغيوم. السماء رمادية العاصفة تزمجر ودمدمة رهيبة تتصاعد من قلب البحر.

الخوف مارد يثقل على النفوس، والقلق نظرة جامدة معلقة فوق الوجوه.

إلميناء أشبه بخلية نحل مجنونة تعرض نظامها لهجوم مفاجيء.

المراكب الضخمة يرتفع عويلها من الخارج، ولا تحاول واحدة الاقتراب من الرصيف. آهاتها المديدة تصل من بعيد.

ماذا يمكن أن نصنع ؟

نتوقف، ندخل، أم نبحر من جديد ؟

ويتعالى الصراخ الحاد. أصوات استغاثة تهتز أسلاك البرق. والحيرة بحر واسع ليس له قرار.

منذ زمن بعيد اتخذت أنا هذا القرار - البحر حياتي وعملي -. وتقول أمي : لا.

« لا يمكن أن أمضى عمرى كله في الانتظار، أعانق القلق - والبحر ملك جبار - يتحدى الرجال الشجعان. البحر أخذ مني رجالي وعيالي. »

« وقفتي دائماً على الشاطيء. أنسج خيوط الشباك، وأفتل حبالاً للصبر.

كانت المياه تنشق عنه فجأة، ويضحك من خوفي. يثق أن عمر الشقى ممتد. يعود معه الرزق، والبهجة ودفء الحياة.

وذات ليلة سمعت ضحكاته فقط من بعيد، كنت لا تزال ببطني - ببطن الغيب - وأنت بداخلي لم تكف لحظة عن الحركة والدوران. رقصات الموج، وعنفه، وتتابع ضرباته ورثت حب البحر عن أبيك »

لماذا لا ترث مصيره أيضاً ؟

يتعالى صراخ حاد. يرتفع صوت أمي. ينسكب صوتها النائح داخلي « عد يا بني، اهتد بالله - البحر ليس له كبير.

في البحر أحس أني كبير. أمام العاصفة تتيقظ كل خلايا جسدي أصبح كائنا متساميا. أكاد أعلو عن الأرض. على الأرض أحس بضيق، وقلق. تفزعني الشوارع، السوداء، والزحام. الكتل المتراصة من البشر، والذين يلهثون وفي عجلة من أمرهم يهرعون.

التراب يثور ويلقي ضباباً على البيوت والناس. « الضباب » يلفنا في البحر نظيفًا شفيفًا. نتحول معه إلى مخلوقات نورانية، نلتمس النجاة من الله.

الشمس في المدينة تثير سخطي وجنوني، وتحجبها في الشتاء عني البيوت والدخان.

الشمس في البحر عروس تخرج من أحضان الموج كل صباح في رحلة رشيقة، تستوي كرة من الذ... ويظل الأفق من بعدها متوهجًا وحالمًا حتى يغيب في خض م مولد جديد.

فى البحر والليل ندرك حقيقة أنفسنا جيداً. نلقى بعيداً بالأقنعة.. كل الخبايا واضحة وعارية.

تخاف أمى العاصفة، والعاصفة تبرز معدن الرجال، وتحيلنى إلى قوى جبار.

أصبح كالساعة الدقيقة، تلتقط حواسى كل نذر العاصفة. أصبح أنا والسفينة شيئًا واحداً.

الريح تغير على سفينتى، وحركة الميناء خلية نحل مجنونة تعرضت لهزة مفاجئة.

وينتقل الجنون داخلى، أجدنى أمام لحظة نادرة، وقت رائع للرحلة، وتوقيت مثير للرحيل.

وكأنى أتحرك بإلهام خفى. أعلو سطح السفينة، ألقى نظرة على البحر. هو يعرف أنى هناك أحبه وحياتى معه، ولكن لابد لنا من المزاح.

وتحملق النظارات السوداء من بعيد.

من المجنون الذى يخاطر، فى مثل هذا الجو؟

ملك البحر يتقدم. وعلى الزوارق الفزعة أن تبتعد. أنا والسفينة كيان واحد. (نحن الربابته نحمل أرواحنا فوق أكفنا، لكننا نحمى السفينة والمهمة).

وتتلقانا الضربات. هى الإشارة لبدء المعركة إذن .. نجدنا فى قلب الصراع. لابد من الاشتراك فى الرقصة العنيفة.

هو قتال كبير، البحر والبحار، ولابد من الانتصار.

ترتفع الأذرع الوحشية تطوقنى، تضرب بعنف، تحاول أن تنال مركبى من وسطها، أدور بها. عملى أن

أحمى خصرها وأحيطها، وهى رشيقة مدربة.. تجيد متابعة اللحن .. وتلك الموسيقى النابعة من الأعماق.

مطيعة، وحانية. كالمرأة المحبة ذات الشخصية الآسرة.

الخوف يتمدد فى قلوب الرجال.

والقلق نظرة على الوجوه جامدة.

والنشوة تلتمع وسط الصخب.

ويفتر حماس البحر، يتراخى فجأة، ويتثاقل جسده العملاق، يحيل ثورته إلى مداعبة. مزاح ثقيل. وتعلو صدى الضحكات.

وفجأة أشعر بحاجتى إلى الغناء. (البحر له كبير يا أمى، علام خوفك والبكاء ؟)

وتنوح أمى من بعيد : « هل خلقت من أجل الانتظار المر ؟ ومالحة طعمها الحياة. البحر يأخذ الرجال بعيداً ويترك لى الوحشة والعناء .. »

تتصاعد دموعها إلى عينى، أراها بجسدها الناحل وجلبابها الأسود، وعيونها المعلقة بالأفق، يخفق قلبى. يسيل الدمع إلى حلقى. أركن لحنانها المعذب، وكأنى أغوص .. وأنتبه بشدة؛ أنهض؛ .. عاد البحر إلى الهجوم.

برز لى - فى لحظة ضعفى - كفى بكاء يا أم. عدنا للصراع من جديد. أشد قسوة - هذه المرة - يقذف بالسفينة إلى أعلى، ويهوى بها - والماء مسحوب من تحتها - أرى القبر الذى أعده لنا.

البحر يضحك منى « أنا الملك الجبار. موج فوق موج، وظلمات فوق ظلمات. إلى أين أيها الإنسان؟ ».

تعلمت الكثير من البحر. أنا مثله أحب المناورة، وعنيد مثله لا تأخذني المفاجأة أعلم أنه مسخر لي، وأنني بأعين الله.

لا خوف عليَّ، ولن تحزني يا أماه.

أعتدل، أشق طريقي. تثبت السفينة وكأنها سرت إليها شحنة الإيمان. وترتفع الأذرع السوداء؛ تشدنا إلى النزال. لكن البحر الإنسان واسع الحيلة يا جبار - لن تستدرجني الى الالتحام - ولن أشترك في رقصة الموت.

ولأني أدرك قول أمي « البحر ليس له كبير » وتعلمت منذ أجدادي الأسماء، أعي أنني أمام اختبار، أعرف مدى قوتك وأعرف أكثر : متى أنحني أمام العاصفة، ومتى أهرب. - والهروب في البحر فن كبير.

عندما تعرف أن ميزان القوى ليس في جانبك - اصنع شيئاً لا يتوقعه منك عدوك - البحر يستفزني، يجرني إلى العراك، يشدني إلى عين الصراع. تدوي لطماته المجنونة من حولي، وتكاد تفجر قوى الغضب والتحدي داخلي، لكن بعدها يمكن أن تسمع أمي صدى ضحكاتي فقط. أتقدم يعرف أنه أثارني. ويرحب بمقدمي.

لكني أغلق كل منافذ سفينتي، وأندفع بكل عيون السرعة لدي، أصل إلى « كن » بعيد ، ألقي بمخطافي، وأرتقب.

هاج البحر وأرعد، وراح يبحث عني، ويصرخ بي: « أين أنت ؟ فررت من النزال ؟ أدبرت من القتال ؟

لا أجيب، ولا أسمع، ولا أتحرك.

أفتل حبالاً من الصبر ، وأمارس لعبة الانتظار أتأمل

العاصفة كأنى شاعر أورسام. شباكى دائرة زجاجية، وخلفها تحدق دائرة عيونى.

الصبر ساعات لها من العمر أجيال، والانتظار صفحة سوداء تتراقص فوقها مئات الصور والأشباح، لكن الحكمة تقول: لا تمكن عدوك منك ما دامت القوة فى جانبه، فلادعه يهذى، حتى تتبدد قوته هباءً.

القلق، والترقب. الشوق الممض. لحظات الخروج من المعاناة، عرفت مذاقها فى بطن أمى، سكبتها كلها إلى حبلى السرى، وتشبعت بها حناياى (ليال طويلة كنت أمى تحملقين فى الماء. عيونك مشدودة إلى أمام - تتلهفين لحظة القدوم - هل ينشق البحر عنه - هل يبعث من جديد من قلب الماء؟.)

لم يحدث أن رأيته. لكنه وهبنى كل ميراثه عن البحر، وصيد الحقيقة، وجهد السعى وراء الرزق

لفظ فى جوفى خبراته عن اليم، وأقام شراعًا جديدًا له فى الحياة.

أبى يداه خشنة، عنيفة وهى تنتزع من البحر قوتها.

يدى مدربة، تغوص وراء معنى وجودها وتبحث عن كنوز دافئة. البحر ملك جبار. مارد يضحك بأعلى الصوت.

وجه أبى يبتسم فى الظلام.

أصبر، حتى يستنفد البحر قوته. لا أدعه يصفو تمامًا. كل لحظة محسوبة وثمينة .. أخرج عليه فجأة، أشق بمركبى طرقة لى، يفسح لى الطريق، ونغيب معًا فى ضحكة صافية.

البحـــر يحب الرجال الأقوياء، الذيــن تســع قلوبهم المحنة والغناء.

وأنا كبير فى البحر يا أماه.

صعـــب

○
○
○

بدت قريتنا وكأنها فى وسط العالم تماما ..
عباءة قاتمة تمتد حتى مرمى البصر ..
حشود سوداء .. تراصت النسوة فى الساحة ..
أفواج كثيرة .. وصفوف محشورة ..
والجلابيب سود ..

بحر لجى تجمد فيه الحركة وتجور .. ثم تعود للتدافع والصخب .. وتتمطى بالصياح .

والسماء .. ندية زرقاء .. تنعكس عليها أشعة زاعية وضياء .. قطع من سحاب .. فوقها نور منثور ..

(تزينت السماء من أجلك يا حبيبى !

هل نحن فى يوم الحشر .. وهل قامت الساعة .. فقط السماء تهدىء من روعنا ..

أكف الفلاحات تشد على يدى .. يقلن كلمة واحدة : صعب نعم يا أحبائى صعب ..

صعب جداً وبشدة .. صعب كثيرا ..

ولكن كيف صفت فطرتهن .. وشفت قلوبهن .. حتى قلن هذه الكلمة المذهلة : صعب ..

يقلنها هكذا .. ببساطة غريبة .. وتنفذ إلى شغاف القلب ..

كيف اختزلن كل الكلمات .. وشتى أساليب العزاء ..
وبلغن عمق جذور المحبة والحنان بكلمة بليغة .. مركزة ..

عنيفة وتصدح بالعذاب ..

كلمة تقول ..

صارخة الجرس والمعنى ..

« صعب » لفظ جامع .. موح .. وشاهد على الحال ..

تقدير للموقف معجز ..

من أين لنساء قريتنا الوعرة .. كل هذه الحكمة .. ودفء البيان ..

اتفقن على تعاقب الأجيال والأقوام .. وأيا كانت الظروف .. وقت الشدة يكن إنسانا واحدا .. وكلمة واحدة ،،

هذا هو سر تلك الهياكل البشرية العجفاء .. الصابرة أبدا .. المستمرة فى الخصوبة والعطاء ..

« صعب » يا أحباء ..

وأنا واحدة منكن وعلى بالصبر والاحتمال ..

مرت عربة اللبن .. توقفت أمام الدار ..

كانت فى زمانها عربة مزدانة تجرها الخيول .. يجرى حولها العبيد والأتباع – الآن شاخت .. وخبت .. وحصانها هزيل كسير .. يسعى بين الدور ويمعمل الألبان

ترجلت سيدة عجوز .. أفسح لها الجميع معبرا .. وثقل الصمت على المكان .. كان من الواضح أن المرأة القادمة هى « عمتى خالدة » ..

قدمت بأعوامها التى تربو على الثمانين - ولا نذكر أنها غادرت دارها منذ عشر سنوات -

بدت كخط رفيـــع مستقــيم .. لايزال يتقدم حتى يملأ المكان ..

هنا أطلقت لصوتى العنان ..

آه ياعمتى .. جئت تعزينى وتقولين « صعب » ..

أتت .. وفى كل حرب لنا .. كان لها شهيد

أنت أيضـاً يحـق لك تقـبل العـــزاء فـيـه .. كنت بمثابة أم له ..

صديق أصغر أبنائك. كان معه وقت القتال ..

كان يزورها قبل أن يذهب إلى داره .. تقبله وتدعو له .. وتقول أنها رأت ابنها فيه .. وكل أولادها ..

يعود وقد نسى كل الهموم .. وصفت نفسه وأشرقت روحه .. يقول عنها : هى نبع الثقة . وإرادة الشجاعة ..

(ورغم أن الدار قد خلت إلا منها .. وتوارى الأحباء .. إلا أنها ظلت « حافلة » .. تفيض بالحركة والبركة

كيف أحتملت العجوز الام .. الوحدة .. وحرقة الفقد وغياب العيال .

أعزيها .. أم أتقبل منها العزاء .. لقد غاب الوحيد المتبقى لها ..

الذى كان يحمل فى قلبه ودمه بذور الوصل ..

هو آخر الشهداء لديها .. تجاوزتنى وقعدت غير بعيد .. سمعتها تقول فى عزم :

ـ نعم .. « صعب »

ولكن الموت ليس نهاية كل شىء « كل ما نعمله يبقى حيا بين الناس مادمنا نعيش لن ننسى الأحباء الذين سبقونا » (بكى صوتها دون عيونها لكن علينا أن نعمل

ما يجعلنا جديرين بحبهم ..)

(توجه كلماتها إلى .. تخاطب من حولها وانا من تعنى لايمكن إغفال كلماتها .. هى شهيدة عظيمة .. ومن الصابرين ربط الله على قلبها !

القرية كلها تحبها .. والنساء تسعى لحديثها . والناس ترضى حكمها ..

- مازالت تعيش .. راضية .

لأنها تفكر فى الناس .. وتشغل نفسها بحبهم وعمل ما ينفعهم

(يقول عنها دائما !

جاءها تعويض لأحد أبنائها .. وقال الناس لن تقبله . قال بعضهم ستوزعه علينا .. كما تفعل بقروشها المعدودة. ناصحين .. ابنى لنا جامع .. وحتى يتبرد قلبك .. ورحمة ونور على الشهيد ..

جاءتهم إجابتها الحاسمة :

بيت الله يمكن أن يكون مدرسة

(كان أطفالنا يقطعون طريقا وعرا إلى مدرسة القرية المجاورة .. ويتعرضون للبرد والذبول والسقوط).

أقامت المدرسة ..

وكان الناس يشاهدونها حين الفجر .. وفى البكور تسوى الأرض بيديها .. وترش الجدران بالماء .. وتقرأ بين أعمدتها القرآن ..

سمعتهم يقولون لها هل نحملها إليك لتعزيها وتسمع وصيتك ..

- اتركوها لتقوم بنفسها .

أمامها عمل كبير .. لا يحتمل التأجيل .

(تكمل رسالته .. وتصلح أطفاله ..)

عليها أن تسمعني وتعي ما أقول .. لا تتأخر عن عملها في المدرسة أولادنا يستعدون للامتحان ..

تململت نفسي وأنا أنهض.

أصررت على القيام بمفردي .. دون الأيدي التي امتدت لمساندتي - وحملي إن لزم الأمر ..

حقا عمتي خالدة ..

أمامنا عمل كثير ..

لن أنسى نظرة التطلع القلق في عيون ابنتي .. ولا عيون الصغار في المدرسة..

كان يوما واحدا منهم .. هو ورفاقه الشهداء .. يمشون عشرات المئات من الأمتار كل يوم ذهابا من أجل أن يتعلموا وعندما كبروا .. وفي سن النضوج والمعرفة .. استشهدوا .

وقدموا حياتهم ..

لن يغيب عني ولن يكون بعيدا .. وحولي هذه العيون المتطلعة ترنو إلى الأفق .

لن أدع أحبائي في المدرسة ينتظرون .

فى اتجاه واحد

o
o
o

دعوت أن ييسر على الأمر

رفعت يدى .. أشرت برجاء وعزم .

توقفت العربة أمامى - أمام باب الجريدة .. انتهت لحظه الترقب العصيبة .. إلى البيت ياتعبى وكل آلامى .

دلفت إلى الداخل .. لملمت كتبى وثوبى.

تحركت العربة وبدأ السائق يعتذر للراكب بجانبه ..

« معذرة .. لا أستطيع تركها وهى فى نفس الاتجاه .. »

- كأنه يتحدث إلى نفسه .. لم يبد على الآخر أنه يسمعه .. اعتدلت .. أخذت أتأمل ظهر الرجل الذى لا يريد لأحد أن يركب معه!

- مستقيم القامة .. مرفوع الرأس مجعد الشعر-

(لله فى خلقه شئون .. قد يكون فى عجلة من أمره .. أنانى .. مستبد - لايبدو ومنطويا على نفسه - ربما أحد المترفين الجدد تعطلت سيارته واضطر لاستعمال التاكسى) السائق تطل دهشته فى المرآه أمامه .. أحسست به يتأجج بالرغبه فى الحديث والإفضاء ..

ـ الحكاية إن البيه يرفض التوقف لأحد .. تركنا أسرة صغيرة .. ورجلا وابنته .. قال أعطيك ما يدفعوه لك .. فقط استمر فى طريقك .. ..

حضرتك جئت فى طريقنا ..

وكان لا يمكن ألا أتوقف ..

أصبح الموقف حرجا .. يحتاج إلى كلمة توضيح أو اعتذار .. والرجل لايبدى أى استجابه أو مشاركة .

ارتفع صوت السائق مؤنبا : ضرورى كلنا نساعد بعض ونتحمل بعض ..

استمر كأنما يتحدث إلى نفسه ويثير الذى يجلس بجانبه ..

ـ فى البدايه قلت يمكن مزاجه الهدوء .. يكره الزحمة .. لكن الشارع نفسه فى حالة انفجار ..

وجه حديثه مباشرة : ولاّ البيه لا يحب الناس أو حصل له حادث يخوفه منهم!

استمر صمت الرجل ولم يعلق .. تنهد السائق ..

« لله الأمر والكبرياء »

عاود الحديث بعد لحظة .. يشاهدنى فى المرآه أمامه ..

ـ حضرتك فى مجال الإعلام ؟

أقول لك موضوع يثير أعصابى .. ممكن تعرضيه على الشاشه الصغيرة أو الجريدة ..

الحكاية إن أقسام البوليس تضع على واجهتها لوحة كبيرة ـ البوليس فى خدمة الشعب ـ كانت مطمئنة ومريحة

وتعمل عملها حتى لو ظلت أحيانا مجرد شعار..

المهم انها موجودة .. ومرفوعه .. وواجب تحقيقها

لا أدرى من العبقرى الذى غيرها .. وجعلها « فى خدمة القانون » .. تغير المعنى .. تحولت الإشارة .. هم ينفذوا القانون .. وهم فى خدمه الناس ورعاية مصالحهم .

(ساءلت نفسى وهل تغير الشعار حقا)

- لاحظت حضرتك مسئول الأمن فى بداية عمله قال « أنا فى خدمة الشعب » الناس استبشرت خيراً ..

لكن الأهم عندى الضابط الشاب فى بداية عمله .. يواجه اللافتة كل يوم .. خارج داخل - لابد تأثر فيه .. تنفذ داخل عقله وقلبه .. معلنه فوق ضميره .. عينى على الشباب .. والمستقبل أهم عندى ..

تبينت أن الرجل قد استدار .. يصغى للحديث ولاتفوته كلمة منه ..

بدا السائق متحمسا مسروراً - أثار انتباهه أخيراً .. داعبه ..

- وأنت يا أفندم ما رأيك .. موافقنى على الفكرة

قال بتأكيد : فكرة جميله وهامة .

اعتدل شأن من يلقى ببيان : وسنعمل فى الحقيقة .. توقف فجأة ..

وهتفنا أنا والسائق فى صوت واحد : أنت .. ..

الكنـــــز

ooo

البحر أمامى وأشواقى تمتد بلا حدود

- كنت بحاجة لأن يهدأ الصخب داخلى والقلق

أسترخى تماما .. أذوب فى صمت عميق ... تنسحب الرمال المبتلة تحت قدمى أشعر بخلخلة فى جسدى ... تهزنى رعدة .. تنثال منى أحمال وأثقال ... أصبح هشة للغاية ... أحلق فوق الماء ... أرى سطح البحر من أعلى .. وألتف حول الخيمة الزرقاء ... أشهد قمة الأرض ... وأجدنى هناك على الشاطئ ... مثل صدفة صغيرة ملقاه.

عدت أضم يدى على نواتى .... جوهرتى ... أيقونتى الحية ... إذن فهذا هو كنزى ... سرى الخاص .. مستقبلى .. ميراثى الحاضر والغائب .. وكل شئ مرهون بقدرتى على التصرف بشأن هذا الميراث ...

قالت أمى « انت الجديرة بحمل هذا العبء عنى »

أعرفك « حمولة » .. صبورة ... تعشقين الحكايات الصعبة وتودين تحقيق المستحيل ...

الأولاد صبرهم قليل .. تهجرهم أحلامهم بسرعة وتجف عروق المحبة .

قامت أمى من فراش مرضها قوية معافية ... محمرة الوجنتين ... وعيونها تلمع ببريق عجيب .

فتحت صندوق عتيق كانت تحتفظ بمفتاحة الصغير داخل منديل بصدرها تحرص عليه كأنه تعويذة أو تميمة لاتريد أن تفارقها وتضمه فوق قلبها .

أخرجت أمى كيساً من القماش زاهى الورود والالوان - صنعته بنفسها

أرخت خيوطه الحريريه الملتفه حول فتحته ... أتابع حركتها وسلاسه الخيط المسحوب وقلبى يخفق بشدة .

أدخلتنى عالماً مسحوراً ...

بدا لى الكيس كتابوت يغلف مومياء صغيرة ... جنين ملكى ملفوف بالذهب أو خبيئة ثمينة ورثتها عن الاجداد السابقين.

« قالت أمى إنى صبورة » وأعشق الحكايات المستحيلة كنت أراها فى طفولتى مشغولة أحيانا بهذا الحيز الضيق من القماش « تطل عليه وتتأمل مافيه تناجيه وتتحسس جوانبه بوله عظيم » تعود فتغلقه وتعقص خيوط الحرير حول فوهته .

من ثمرة حواديتها المرسلة ... علمتنا ألا نبحث عن سر غيرنا .. والا نطلب بالافضاء به ... لأنها مسئولية وحمل كبير .. بل نجاهد لنجعل أنفسنا أهلا للثقة ومتاحين

للحفاظ على الكلمة والسر.

كنت أعى الدرس جيداً . وألتزم بحكمة الحواديت ... ولكنى فى المقابل كنت على استعداد لأدفع نصف عمرى وأعرف مافى الكيس.

كنت أجاهد لأكبر وأثبت حسن تربيتى .. لتقول لى أمى سرها ... ولكى أصل إلى صف الكتب الأعلى بمكتبه أبى وأعرف مافى كتب الكبار.

(أنمو من أجل مهمة صعبة وأجاهد فى جبهتين وغايتى المعرفة لأمسك بسر الأشياء)

ها قد بدأت رحلة الكشف .. وأرخت أمى الخيوط بين يديها .. ووسعت فوهة الكيس .. وأخيرا سكبت مابداخله على المنضدة ... تدفقت حبات من الرمال ثم تدحرجت قوقعة صخرية ... صدفة ملتصقة الجانبين .. مغلقة ومنتفخة من الوسط .

فتحت عيونى عن آخرها .. أهذا كل مافى الأمر ؟!!

حقا تبدو الرمال مشعه ناعمه ... والصدفة نادرة ... ملساء ملصقة .. تطبق جانبيها بقوة على نواة داخلية أو حبة كامنة. ثمرة جفت داخل أكمامها ... كأنما الأمواج مازالت تغسلها وتصقلها .. ولكن مابالها ؟

رفعتها بين أصابعى .. كأنما أحيط العالم بأكمله .. بحبه من قلب الأرض ... (أو نواة القمة التى شاهدتها

اليوم فى مدارى حل قوس السماء وسطح البحر)

قالت أمى : وجدتها ذات صباح على الشاطئ بداخلها كنز يا ابنتى ... تحمل فى جوفها ماسة « لؤلؤة ... إنها عطية من السماء لنا ... رسالة من الله ... نفحة مباركة »

تحتاج للصبر لتنمو وتكتمل - احتفظت لها بالرمال حولها حتى تكبر فى بيئة طبيعية - حرصت على وضعها داخل حضانة من دفء الرمال وحنوها - والآن أهبها لك ... أشعر بموعدى يقترب - أصبرى عليها حتى تنضج ويمضى السنين لاتلبث قشرتها أن تشف وترق حتى تكشف عن الحجر الكريم ويكون أوان استلام كنزها .

تعتقد أمى أن بداخلها جوهرة .. وجدتها بجانب البحر حياتى متصلة بهذا الأزرق الكبير دائما .. يأتينى منه رزقاً طيباً جاء بحارى على متن أمواجه .. قال « لامثيل لها » .

كنت أحلم بقوقعة نادرة أهبها للمرأة التى أحبها ... ويبدو أنها وصلت إليك قبلى أنها تشبه تطابق الحب وتوحده ... آية لنا وتظل رمزا لعملنا - تشبه نواة الجوهر الكامن بالأعماق ... لابد أن تقتحمه ونصل اليه .. أضعها على صف الكتب أمامى ينبض قلبى حولها فوق الورق .. قالت أمى « رسالة من الله .. كلمة من كلماته » حرف من جميل صنعه. أصحبها معى فى كل رحلاتى ... أغسلها بماء البحر كلما جلست على شاطئه فاجأتنى ابنتى اليوم - هل نكسرها يا أمى لنعرف ما بداخلها ؟

أسرعت بإخراجها من الماء ... داهمني القلق .. قالت أمي : الأولاد صبرهم قليل .. تهجرهم أحلامهم بسرعة ...

والبنات اليوم نفذ صبرهم ... يريدون الأشياء بسهولة « لايتريثون قليلاً لا أستطيع أن أورثها لها .. تنقض عليها ... تكسرها تحكم عليها قد تلق بها تصادر إمكانية النمو لديها ..

عبء ثقيل يا أمي معرفة السر حقا ... أن نكون كلمات الله . تأملتها من جديد ... مازالت مشعة ... مفعمة بالقوة ..

وقد شفت ورقت حتى ليبدو حملها ممدد بالداخل .. هل جاء موعدي وضعتها على صدري ... تتصل بنواتي الداخلية.

تلمس قاموس البحر والكلمات

قالت أمي : إنها يد الله ... وصلة .. وشيجة محبة وقربى تبرق أشعتها داخلي . مضى بحاري وأنتقل . يبدو لي فوق الماء تلتمع حكمته « لابد أن يقتحم الإنسان ذاته يصل الى أغوارها » - والتوحد في الحب . يهمس صوت أمي . تظل تشف وترق ... حتى يبدو جوهرها - قبلتها .... أشم رائحة البحر بقوة - رائحة الرياحين وعطر الأحباء تبدو صلبة ... متينة ... مفعمة بالضياء .

إذن فهذا كنزي - ميراثي ...

نهضت تنسحب الرمال تحت قدمي ... تمسنى رعدة ...
فرحة

أضم يدى على جوهرى .... كنزى

وبأقصى ماأوتيت من قوة ألقيت بها إلى البحر.

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٨٤٧ / ٢٠٠٣

I.S.B.N. 977 - 07 - 8722 - 6